

د. علي فهمي خنيم

# مَرُّ السَّحَابِ

سَلْسَلَةٌ

تُحَقِّقُ

إِشْرَاقِيَّةَ

الثَّقَافَةِ

82

1984

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان  
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

كتاب الشعب

# مَرَّ السَّحَابُ

عيسى يوسف الدويهي

د. علي فراس خنيم

المنتاة العامة للنشر والتوزيع والاعلان  
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

اكتوبر 1984

العدد 82

الطبعة الأولى  
1393 و.ر - 1984 م

959

المنتقاة العامة للنشر والتوزيع والاعلان  
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

حقوق الطبع  
والاقتباس والرجعة  
م محفوظة للناشر

# حكاية قديمة جداً

ماتت «أرسينوى» زوجة «بطليموس الثانى» فى مصر، كانت ملكة رائعة وشخصية فذة. وارتفعت أعمدة الدخان العملاقة من كوم جنازتها نهاراً، وتوهج لهب النار ليلاً... حتى بلغ بحر «إيجة». وعلى قمة الجبل المكسو بالجليد رأت أختها أعمدة الدخان وألسنة اللهب.. صاحت برفيقتها فى لهفة وجزع:

«إيه يا خايس..»

اعتلى قمة الجبل..

وانظرى من أين تأتى النار..

أية مدينة اختفت؟

أية مدينة تحترق

وترسل الوهج؟

إنى قلقة..

موسى يوسف اليمسوى

فلتطيري ..

فلتحملك الريح الجنوبية الصافية .

هل يمكن أن يحدث؟

أن تصاب حبيتي ليبياً بسوء؟» .

وحلّقت «خاريس» على قمة الجبل الشاهق، وألقت

نظرة على جزيرة «فاروس» الشهيرة عند مدخل ميناء مدينة

الإسكندرية . ثم صاحت من قلب موجع مكلوم :

«نعم ..

الدخان يأتي من المدينة .

لكن أتوسل إليك أن لا تنتحبي ،

فإن جزيرتك لم تحترق .

نعم ..

إن المدينة يملؤها العويل ..

فالناس يكون شخصاً من العظاء ..

وأينما جلت ببصرك في المدن ..

رأيتها مجللة بالسواد» .

هكذا صور «كاليماخوس» شاعر قورينا الأجدد الموقف

الحزين . كان يحب وطنه . . كان يعبده . . ورغم أن الزمن

ألقى به فى بلاط ملوك الاسكندرية فهو لم ينسه أبداً . .  
وكان يذكر مغانيه . ملعب صباه ومرتع شبابه . كان يحن  
إليه ويمجّده ولا ينساه حتى فى لحظات وصفه لموت ملكة .  
كان يخشى عليه من المحن :

«هل يمكن أن يحدث . .

أن تصاب حبيبتى ليبيا بسوء؟» .

وقد تتعالى ألسنة اللهب من مدن أخرى، وتعلو منها  
أعمدة الدخان، ويجللها السواد لموت شخص عظيم، أما  
ليبيا فلن تصاب بسوء أبداً .

قصة قديمة جداً هذه الحكاية . . مضى عليها أكثر من

ألفى عام!



مِنَ افْتِتَاحِيَّاتِ  
« الفُصُولِ الأَرْبَعَةِ »

يَنَآيِر 1978 - أَكْتُوبَر 1979





# ثورة الفكر... وفكرة الثورة

كثيراً ما يخطر في البال هذا السؤال:

ما هي «ثورة الفكر»؟

وقد يكون الجواب: رفضه لكل أشكال الجمود،  
وتحرره من التبعية والتقليد، وانعتاقه من أسار القيود.

هذا يعني أن الفكر ينبغي أن يكون في حركة دائمة،  
يسبر الأعماق ويدخل المجهول، ويطلب الإجابة عن كل  
سؤال. الفكر الثائر لا يتقوقع ولا ينزوى ولا يهاب. بل  
يهجم... يقتحم... يتساءل دائماً، ويحاول الإجابة. لكنه  
في ثورته يجب أن لا يمضى بدون سلاح.. إذ ليس ثمة  
معنى للهجوم بدون هذا السلاح.

وسلاح الفكر يكمن في شيء واحد: المعرفة. هذا هو

ما يعبر عنه قديماً بـ «العلم»، ويسمى (الثقافة) في تعبيرنا الحديث. لكن المعرفة لا تأتى وحياً. إنها لا تهبط من السماء أو ينزل بها ملاك يودعها دماغ أحد من الناس. لا بد للمعرفة من شيء اسمه: القراءة. الاطلاع. النهم في تتبع المعارف.

لا فكر بدون ثقافة. ولا ثقافة بدون فكر. ولا أحدهما بدون قراءة. ولنحدد المراحل: القراءة، فالمعرفة، فالفكر... فالثورة.

هنا يتضح الارتباط الكامل بين مكونات «الثورة الفكرية»، وهنا نجد أن الخبط ذات اليمين وذات الشمال دون وعى بهذا الارتباط يعتبر أمراً بالغ السوء. ولا يمكن تحقيق شيء اسمه «ثورة الفكر» بدون مكوناتها الأربعة المذكورة.

بعدها يمكن أن نتحدث عن الجمود والركود والقيود..

قبلها.. كلا.

وكثيراً ما يخطر في البال هذا السؤال:

ما هو «فكر الثورة»؟

وقد يكون الجواب: المنطلقات والمبادئ (الفكرية) التي قامت الثورة من أجلها.

وهذا يعنى أن ثمة أساساً فكرياً للفعل الثورى. إذ لا يمكن القيام بعمل فعلى محسوس دون أن تسبقه فكرته.

لكن الاختلاف بين الاصطلاحين يكمن فى أن الأول عملية ذهنية، فردية فى الغالب. والثانى عملية تدرك آثارها بآثارها الواقعية المحسوسة، جماعية فى الغالب أيضاً. الفرد والجماعة هنا.

الفرد.. مجموعة أفراد.. يكونون الجماعة.

والجماعة عبارة عن جملة أفراد.

فالفصل بين الفرد والجماعة هنا صعب للغاية، إن لم يكن مستحيلاً، باعتبار الامتزاج العضوى بينهما. ومثلما كانت «ثورة الفكر» فى حاجة إلى مكونات، فإن (فكر الثورة) فى حاجة إلى مكونات هو الآخر ليتأكد التأصيل ويتوثق الارتباط بين الاثنين.

لا بد لفكر الثورة إذن من: مبادئ. ولا بد لهذه المبادئ من وضوح. ولذا لم يكن عبثاً أن توضح كل ثورة في أى مكان مبادئها. . هى ما يعرف فى تاريخ الثورات باسم «الشعارات». عليها تؤسس وجودها، وبها تمضى فى طريق الجماعة التى نادى بها.

امتزاج الفكر بالثورة إذن ضرورى، والتحامهما حتمى، لكيثونة الاثنى معاً. فلا يمكن للفكر أن يتحرر بغير الثورة، ولا يمكن للثورة أن تتأصل بغير الفكر. فإذا التقياً معاً تم الانعتاق والرسوخ. . وهذه قمة تحقق الوجود.

الانعتاق بالثورة.

والرسوخ بالفكر.

هنا لا بد من عودة إلى أساسى الفكر الأولين: القراءة والمعرفة. وهنا تجدر الإشارة إلى ضرورة مبادئ الثورة. . . أعنى شعاراتها. وهنا يمتزج الأمران مرة أخرى لنخلص إلى نتيجة حتمية:

إذا فقدت الأسس العلمية المعبرة عن الثورة فقدت

مبادئ الثورة وضوحها.

ذلك لأن الفكر «المسطح» يسيء دائماً للقضية التي يدافع عنها. وهو يشوّه بضحالته كل القيم العظيمة للجماعة. ومن هنا تنشأ مشكلة (التعبير) التي هي أساساً مشكلة «فهم». . . أعني مشكلة (معرفة). فالفكر الغائم لا ينتج إلا أفكاراً غائمة، ويأتى تعبيره غامضاً غير واضح، لعدم وضوحه هو ذاته، بسبب نقص معرفته، لأنه من الأساس لا يقرأ.

الخلاصة: القراءة تؤدي للمعرفة. والمعرفة توضح الفكر. والفكر يعبر عن الثورة. والجميع حلقات في سلسلة واحدة، تشمل الفرد والمجتمع على حد سواء.

## عن في وعن

في عصور ازدهار الحضارة العربية اهتم الكتاب والأدباء والعلماء بالخلق والإبداع. في الفلسفة والشعر والتاريخ والفلك والطب وكل فرع من فروع العلم والأدب.

عندما بدأت الشمس العربية في الغروب ملئت ملايين الصفحات شروحاً وهوامش وحواشي وتعليقات ونظماً واختصاراً وتطويلاً.

في بداية النهضة العربية الحديثة شرعنا نقرأ إبداعاً آخر في فنون الشعر والرواية والقصة ونحوها.

عندما بدأت الأرض - وأسفاه! - تزلزل من تحتنا تحولنا إلى نقاد.. نقد.. نقد.. نقد.

ما الفرق؟

حوّلنا اسم (الشرح) و (التعليق) إلى اسم «النقد» .  
واتكأنا على مقاعدنا الوثيرة مستريحين .

الحضارة والثقافة الحقيقية تعني «في» .

في المسرح، في القصة، في الشعر، في الفكر. أى :  
الخلق - الإبداع - أعطني شيئاً في الاقتصاد، في الطب، في  
الكيمياء، في الفلسفة، في أى شيء. هذه ثقافة  
وحضارة .

«عن» تعني العيش على نتاج الآخرين . كالعلق يمتص  
دم غيره ليحيا به . نحن نتحدث كثيراً (عن) كل شيء .  
نقاد لكل شيء . مجرد شرّاح ومهمّشين ومعلّقين  
ونظّامين . . تماماً كيوم غربت الشمس العربية .

ندوة «عن» مشاكل المسرح، عن قضايا الأدب، عن  
معضلة النص، «عن مفهوم الانزوائية المنخرطة في  
طموحات الانغماس التلقائي العالمي»!

ملتقى (عن) . . .

مؤتمر (عن) . . .

اجتماع (عن) . . .



محاضرة (عن) ...

أوووف!

لم أخرج من الحلقة.

لم يكن عنوان هذه الكلمة «عن» .. في .. وعن؟!!

# الأولة آه !

الشعوب كلها تغنى، والبشر جميعاً يطربون للصوت الشادى الجميل بإيقاعه المنغم وجرسه المرسل الممدود، يريح الروح المتعبة ويمسح عن الفؤاد المعنى أساه. وقد يكون الغناء مفرداً يطلقه الصادح الواحد فيستولى على الألباب، وقد يكون جماعياً منسقاً يشترك فيه أكثر من فرد بتناغم يبعث في القلب النشوة، فتتنفض الروح لتحلّق بجناحي الغبطة في سماء السعادة والحبور.. كما يقول أفلاطون الفيلسوف.

والغناء عند العرب سليقة. صار طبعاً فيهم بحكم الإنسانية، وبحكم طبيعة الحياة الأولى، يوم كان الجمل والعربي رقيقى حل وترحال، وكان «الحداء» وسيلة العربى القديم لتسلية نفسه ورفاقه في جوف الصحراء

الموحش، وحث نوقه على مواصلة السفر الطويل. كان  
الخداء فناً رقيقاً نابعاً من ندى ليل الصحراء، وامتداد  
المسافات، ورقرة سراب الظهيرة، وبزوغ القمر الطالع  
عند الأفق الشرقي اللامتناهي، وسكون الليل الشامل،  
وحصباء الطريق المنتشرة على طول المدى، وشجيرات  
الطلح المتناثرة فوق البساط الرملي الأصفر. كان الخدء  
تعبيراً عن القيم العربية السائدة يومذاك، ونفثاً لما في صدر  
الحادي، حيناً للأهل والدار، وشوقاً للأحباب، وكسراً  
لحدة الوحشة المحيطة.

آه!!

ولبث العرب يغنون على مدى القرون.

قاعات الخلافة في دمشق وبغداد. ومجالس الأمراء في  
غرناطة وفاس والمهدية وطرابلس. وساعات الطرب في  
القاهرة والكوفة والبصرة وحلب. والشعراء يتبعهم  
الغاوون. صار الغناء طرباً. في المدينة ظهر «المطربون».  
عرفت القيان. وأصبح التطريب هو الهدف. يمد السماط،  
ويدور الساقى، وترص القوارير، ويتكىء الدن إلى جانب

السلطان. وكانت «الأغاني» - للأصفهاني - تسجيلاً حياً لطبيعة الغناء في تلك العصور. أعد. . أعيدى. أعد. . .  
أعيدى. ويمضى الليل تلو الليل تلو الليل، ويمزق الأمراء ثيابهم من شدة الجذب والطرب، ويخلعون على المغنين الخلع السنية، ويحشون أفواه الشعراء المداحين تبراً وزبرجداً وياقوتاً. والشعب في طرقات المدن المظلمة يقتل بعضه بعضاً ويقتات بفضلات المآدب والولائم.

... آه!!

ولبث العرب يغنون.

ظهرت «الموشحات» تفاعلاً بين العاطفة العربية وأوزان الشعر الأندلسي المحلي. وصار «التوشيح» فناً له محبوه ورواده: يا زمان الوصل بالأندلس. يا ليل يا عين. يا قمر. يا حلو الشمائل.

ظهرت «الموالي» - عرفناه أخيراً باسم «الموَال» - تعبير من طبقة المسحوقين عن فجائعهم. واختلطت اللغة وفسدت المعاني، وحرّفت الكلمات. وصار الناس أكثر رغبة في الغناء والطرب، تنفيساً عن الكظيم المطحون.

.. آه!!

ولبت العرب يغنون .

في العصر الحديث، عرفنا كبار المطربين بفضل الإذاعات والتسجيلات . انتشرت الأصوات من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر تلعلع بالآهات والزفرات : أنا زعلان .. زعلان ليه؟ يا سيدى أمرك .. أمرك يا سيدى، أنا حيران .. مسكين وحالى عدم .

مطرب الملوك والأمراء (تحول أخيراً بالمناسبة إلى : فنان الشعب!) . كوكب الشرق . سيدة الغناء العربى . سفيرة النجوم . سلطنة الطرب . رئيس ومدير عام شاويشية الطرب العمومى .

.. آه!!

وانظر إلى ماذا يغنى العرب .

في مصر عرف «الموال» - نسبة إلى الموالى .. طبقة المسحوقين التعساء . فى ليبيا: «يا عينى يا داي» . يا دائى .. أيها الداء الذى لا يبرأ . أيها الرمد الأبدي السرمدى .

في الشام: «أووف» - تعبير كامل عن القرف والسخط  
والتململ. واشترك العرب جميعاً، بدون استثناء، في نداء  
الليل والعين: يا ليل... يا عين. يا ليل.. يا عين.

واشترك العرب جميعاً أيضاً في هذه الزفرة الحرى تخرج  
من الصدر أقوى ما تكون، يمدها أحدهم ويطيلها ويمططها  
حتى تكاد روحه تخرج في نهايتها من بين جنبه.. آه!!

آه على شرك الرهيب.

آه وآه ثم آه وآهة.

وبهذه «الآه» تميز العرب عن الشعوب كلها في الغناء.

هم وحدهم، دون غيرهم فيما أعلم، الذين يطلقون  
الآه في موطن الطرب والنشوة. وحدهم يتهدون في مجال  
الفرحة والحبور. وحدهم يتأوهون ساعة الغبطة التي قال  
أفلاطون الفيلسوف إن الروح تنتفض فيها لتحلّق  
بجناحين في سماء السعادة. و.. الأولة... آه!!

# الكمديا

نترك الغناء وآهاته المتتاليات، ونمضى إلى مجمع الفنون، أستاذ الشعوب كما يقولون، إلى المسرح. هذا الذى عرفناه بعد اتصالنا بالحضارة الغربية فى نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن العشرين. ومن عجب أن العرب لم يأخذوا عن اليونان فن المسرح والرواية والتمثيل، وهم الذين نقلوا واقتبسوا عنهم الفلسفة والمنطق والطب والفلك وغيرها من المعارف، وطوروها وأضافوا إليها وحذفوا منها وعارضوها، ثم نقلوها إلى الغرب الحديث لينهض نهضته الكبرى بعد عصور الظلمة الحالكة. لعل السبب أن فى مسرحيات اليونان الوثنية شخصيات مؤهلة وأساطير ورموزاً وأفكاراً تناقض عقيدة العرب على وجه العموم، أو لعل السبب هو ذلك «الحوار» الذى ترخر به مسرحيات اليونان واللاتين من بعد، وهو العنصر

الأساسى فى تكوين المسرح، و«الحوار» قضية بعيدة عن  
الذهنية العربية التى تعودت السماع والتلقى والأمر  
والنهى، ولم تعرف الحوار بمعناه المحدد إلا عند الفرق التى  
كان حوارها جدلاً ونقاشاً ومعارضة للخصم معارضة  
تذهب إلى تكفيره وتلحيده ونعته بكل صفات الكفر  
والزندقة والهرطقة والإلحاد والمروق.

عرفنا المسرح حديثاً، ونقلناه عن الغرب، وقسمناه  
- كما فعل أهله - إلى قسمين: «تراجيديا» و«كوميديا». ثم  
احترنا فى التعريب، فقلنا عن الأولى: مأساة، وفاجعة،  
وقلنا: كارثة، مصيبة، داهية، طامة، نكبة، إلى آخر  
القاموس.. ولم نتفق. وقلنا عن الثانية: مسلاة، وملهاة،  
ومسخرة، ومهزلة.. ولم نتفق.

برعنا كل البراعة فى الأولى. بدءاً من مقتل الحسين فى  
كربلاء ومن قبله: عمر، وعثمان، وعلى (رضي الله عنهم  
أجمعين) وانتهاء باغتيال إنسان خلقه الله على هذه الأرض  
ليعمرها.. اسمه «الإنسان العربى».

يوم عاشوراء نبكى الحسين، على مدى أربعة عشر قرناً



نبيكه، ويوم عيد الأضحى نذبح الخراف ونسيل الدم ونذهب إلى المقابر ضحى لنبكي موتانا بالجملة. وعلى المسرح نجسّد مآسينا، وتظل أشهر مسرحية لأشهر كاتب مسرحى متخصص (اسمه على أحمد باكثير رحمه الله) اسمها «الحاكم بأمر الله» أروع مشهد فيها (من الروع وليس من الروعة) منظر الخليفة المتأله وهو يذبح طفلاً فى العاشرة ليستل قلبه الطرى ويعرضه على جمهور النظارة ليعث فى أفئدتهم رعباً فوق رعبهم الأزلى!

فى الثانية أخفقنا كل الإخفاق.

عندما حاول كتاب المسرحية العرب أن يكتبوا (الكوميديا) لم يجدوا سوى الاقتباس. كل المسرحيات الضاحكة مقتبسة. بدءاً من «الشيخ متلوف» التى نقلت «طرطوف مولير» حتى آخر عرض تشهده العواصم العربية اليوم. عندما حاولوا «الخلق» فى هذا الباب كانت ضحكاتهم نواحاً وفتكاهاتهم صراخاً، ودعاباتهم مخنوقة الصوت مكتومة الأنفاس.

«الكوميديا» أمر، فيما يبدو، بعيد عنا. ونحن

معدورون كل العذر. هل يمكن لعشرات القرون من القهر والكبت والإذلال والاستهانة بهذا الكائن التعس المسمى «الإنسان العربي» أن تنتج إلا بكاء وعويلاً وهماً تنوء به الجبال؟ فإن كان ضحك في يوم من الأيام . . جاء ضحكاً كالبكاء . . كما يقول أبو الطيب رحمه الله .

من هذا الواقع، وحلاً لإشكال اللغة والتعريب، وتعبيراً عن حقيقة أمر المسرح العربي، أقترح ألا نتبع تقسيم أهل الغرب لفن المسرح إلى قسمين كما قالوا. لنكتف بتسمية واحدة تجمع الاثنين وتعبر عن روح «الكمد» الضاحك من شدة الكرب. فلنسمه: «فن الكمديا».

هل توافقني؟! .!

# ألف. لام. بيم

يقولون في الأمثال: «هذا الأمر، أو فلان، أشهر من (قفا نبك)».

لم يكتف ذلك الضليل بأن يجتر أحزانه وحده، وينتحب بمفرده، وينعى ذكرى الحبيب والمنزل وحيداً كما ينبغي أن يفعل، بل يصر على أن «يشاركه» الغير آلامه ويوزع الأسى والشجن على الناس ويدعوهم للبكاء معه، لم يكتف بالمشاركة الوجدانية من صاحب واحد فجعلهما اثنين ليكون هو الثالث كي تجتمع الرؤوس في ثلاثية جنائزية تبكى وتبكي حتى تنفطر القلوب حزناً. ويبلغ البيت الحد الأعلى من الشهرة فيضرب به المثل.

منذ أيام الجاهلية القديمة حتى عصر الجاهلية الحديثة وشعراء العرب يكون. على الأطلال يكون، وعلى فقد

الأحبة والأهل والأولاد وصرعى الحروب وقتلى المؤامرات  
والدسائس يبكون. بمناسبة وبدون مناسبة يبكون. تضيع  
الأندلس - ذلك الفردوس المفقود - فيبكي شاعرهم: «من  
سره زمن ساءته أزمان». وتضيع فلسطين فتجرى أنهار  
الدموع على الأوراق المسودة ثلاثين عاماً أو تزيد. وتأق  
النكسة بعد النكسة ولا نقرأ في شعرنا سوى الجراح والألم،  
والدمع، والنجيع، والحزن، والفجيعة، والندب، والعيول.

أ ل م . ألف . لام . ميم .

ألم . كلمة واحدة تلخص الشعر العربي كله، قديمه  
وحديثه .

أل . . أداة التعريف في لغتنا .

م . . زم الشفاه عند البكاء والنحيب، وهى علامة  
الصمت القهرى المطبق .

لا أريد أن أطلع ولدى على دواوين الشعر هذه الأيام .  
أود أن أبعده عن هذا الألم الممض . يكفى ما قاسى أبوه  
على أيدي شعراء العرب ومن كلماتهم المغموسة فى الدمع  
والدم .

هل يمكن أن نجد شاعراً جريئاً يقلب حروف الكلمة،  
يقدم الميم ويؤخر اللام، فيجعل الألم أملاً؟

هل من شاعر يفتح فرجة الرجاء في هذا الستار الأسود  
لينشق ضياء الفجر ويطل نور الحياة الدافق؟

هل من شاعر يجد تاريخ هذه الأمة، ينادى أبناءها في  
صوت ممتلئ ثقة وعزماً وإصراراً وعناداً وكبرياء، بدلاً من  
هذه الأصوات المبحوحة الممزقة الذليلة المخنوقة بالبكاء  
والحزن؟.

آمل هذا.. إن شاء الله!

# القتل بالكلام الفاعغ !

في قاموس فكر الغرب وسياسته قاعدة مشهورة تتبع إذا أرادوا تجاهل أمر ما يرونه خطراً عليهم فلا يشعر به أحد ولا يحس به إنسان فيؤاد في مهده ويقضى عليه قبل أن يعرف: (اقتله بالصمت)! هكذا قتلاً هادئاً لينا دون ضجة ولا صخب يلفت الأنظار، فتطوى جريمة القتل المتعمد دون أن يدرك أحد ما حدث.

ولقد طبقت هذه القاعدة الرهيبة بدقة كاملة بالنسبة للفكر العربي وتراثه وحاضره حيناً من الدهر. قتلت كل فكرة عربية بالصمت ووثدت كل حركة ثقافية بالأسلوب ذاته، وأطفئت كل ومضة في وطننا الكبير بالتجاهل التام. وكان الإنسان العربي نفسه نسياً منسياً في أركان الأرض الأربعة. كان العالم مشغولاً على مدى السنين الطوال بكل ما يجري في المنطقة القطبية الشمالية والجنوبية، ويقرأ عن

مجاهل افريقيا ويتحدث عن حضارات (الانكا) و (المايا) و (الأزتک) ويعرف كل شيء عن أساطير التوراة وحضارة (كریت) ومدنية جبال (الهملايا) . . إلا العرب والإسلام. بضعة مستشرقين يظهرون بين الفينة والفينة ليكتبوا عن خلافات الفرق الإسلامية، ويتحدثوا عن مظاهر التخلف في عصور الانحطاط ويشيروا إلى مواطن الضعف، ويحرفوا التاريخ عن مواضعه، ويشوشوا الأفكار ويطعنوا كل ما هو خير وحق وجميل في تراثنا.

ثم ماذا؟

استمر الأمر طويلاً. القاعدة مطبقة وكل شيء على ما يرام.

فجأة تغير الموقف. تفجرت الأرض العربية بالثورة والثروة معاً. براكين الثورة تقذف لهبها في كل مكان، والإنسان العربي يبحث عن ذاته ويجدها ممثلة في تراثه يستلهمه لتحرير حاضره وتحقيق مستقبله. وهو يملك كل ما ييسر له الانتفاضة من تحت ركام القرون، ويعرف أنه قادر على نيل ما يريد. انقلبت الموازين، واختلت

المقاييس، وشعر الغرب بالخطر.

القتل بالصمت لم يعد مجدياً.

السلاح الفتاك صار مثلوماً.

والعرب قادمون والإسلام يستعيد نضارته وحيويته، وهو يتحدى بكل القوة التي أودعها الله فيه. الدنيا كلها تلتفت إلى هذا الوطن الكبير وترى فيه المستقبل.

ما العمل؟

فلتبدل القاعدة. فليستعمل حد سلاح آخر. فليصبح الصمت كلاماً.. وهكذا كان! كلام.. كلام.. كلام..  
عشرات المحطات الإذاعية ومئات من الصحف ومئات الكتب، والندوات، والمحاضرات، والمؤتمرات واللقاءات، والاجتماعات. وآلاف البحوث والدراسات.. كلها تتحدث عن العرب والإسلام. الضجيج يملأ الأسماع، والصخب يحيط بنا من كل جانب، والأصوات تعلو هنا وهناك. والغرب كله معنى هذه الأيام بأمر العرب، وحياة العرب وماضى العرب.. ومستقبل العرب. وقد يبدو هذا جميلاً لكنه - للأسف -



ليس جميلاً كله بإطلاق. نظرة واحدة إلى ما ينشر عنا  
وسماع القليل مما يداع يبين عن السياسة الجديدة: القتل  
بالكلام.. . الفارغ! الروايات الخيالية تصدر بالعشرات  
كل عام تشوّه صورة الإنسان العربي وتجعله مجرد بدوى  
لثيم يمتطى جملاً ويشد إلى وسطه خنجراً يقف إلى جانب  
بئر للنفط. الدراسات تنتشر للتشكيك في قدراتنا.  
المؤتمرات تعقد لإغراقنا في دوامة أثر دوامة، والإذاعات  
تأتي من كل مكان لتسلخ بأساليبها الجهنمية عن المواطن  
العربي ثقته بنفسه ووطنه وشعبه.

الكلام الفارغ هو السلاح الجديد ضدنا، كلام غير  
مفيد، كلام يشغلنا عن مسيرتنا، ويفرّق بيننا ويبعث الريبة  
في صفوفنا ويعمّق خلافاتنا ويصنّفنا عرباً وأعراباً  
ومستعربين.

كلام فارغ كثير جداً يأتينا يحتاج إلى النظر. كلام فارغ  
قاتل.

هذه الأمة لا بد لها من اليقظة الكاملة.. . لكي تنتصر.

# التكنولوجيا أنتما لبرم

هل تمكنت من قراءة هذا العنوان أيها القارئ العزيز؟! هذا حسن ويمكنك، إذا رغبت، أن تحشر نفسك في زمرة المثقفين العلميين المحدثين على هذا الأساس!

مصطلح يبدو غريباً طويلاً ممدوداً يجر آخره أوله في عناء. لكنه يرن في الأذن - أنت لاحظت هذا بالطبع - رنيناً خاصاً له مدلوله وفحواه. هل ترغب في معرفة معنى هذا التعبير، إن لم تكن تعلم؟

جيد. فلنعره بأنه «المفارقة التقنية». ليس واضحاً؟ فلنقل إنه «التعالى التكنولوجى». ولا هذه أيضاً؟ فلنقل إذن إنه «التفرد بمعرفة والاختصاص بالأسرار التقنية دون الغير».

الغرب، مرة أخرى، يملك أسرار (التكنولوجيا).

ونحن العرب، مرة ثانية، نلهث للحصول على هذه الأسرار. هم في حاجة إلى نفطنا ومواردنا الغزيرة الأخرى. ولذا نراهم يداهنوننا ويعدوننا بهذه الأسرار.

● التكنولوجيا في خدمة التنمية.

● حوار الشمال والجنوب.

● استخدام التقنية في تنمية الموارد البشرية.

مؤتمرات، ومفاوضات، ووعود، ووفود ثم: لا شيء!

ألم يسأل أحد نفسه سؤالاً بسيطاً: هل نتوقع أن يتنازل الغرب عن تفردّه بمعرفة هذه الأسرار؟ هل يسمح بفقدانه ميزة معرفتها والإحاطة بها؟ هل يمكن أن يعطي سلاحه لمن يحسبهم أعداء له في الماضي والحاضر والمستقبل؟! الطريق إلى التطور التقني لا يكون (بشراء) أسراره، لأنها ببساطة لا يمكن أن تباع بأي ثمن.

الطريق الوحيد غرسها في المناهج الدراسية منذ السنة الابتدائية الأولى حتى نهاية المرحلة الجامعية، وتغيير نمط التفكير بتغيير أسلوب الحياة، وتشجيع البحوث العلمية والإغداق عليها ومساندة كل مشروع علمي تقني على هذه

الأرض. الأسرار التقنية تشبه في هذا العصر أسرار الكهنوت في العصور القديمة لا يمكن الوصول إليها إلا بمعرفة لغتها ومصادرها، وإلا بالتعامل اليومي معها. وإذا كان العرب جادين حقاً في هذا السبيل فليكفوا عن عملية الشراء هذه التي لا تنيلهم إلا النماذج السيئة وليفكروا بأسلوب أكثر جدوى من هذا الأسلوب.

## متى غده؟

مئات السنين مرت، وعشرات عقود الأعوام كرّت، مذ أطلق الحصرى الشاعر سؤاله السرمدى فى زفرة حرّى:  
«متى غده».. يا ليل الصب؟!

استحفلك بالله، أنبئنى، أخبرنى، قل لى، أعلمنى..  
متى.. متى غده؟ أنا الحيران الوهان، التعس النكيس،  
الممزق الدائخ، المرتبك المضطرب، أريد أن أعرف.. متى  
غده؟ مد لى خيط الأمل، بين لى الموعد، أرجوك وأتوسل  
إليك وأتضرع إلى جنابك. أطمعنى ببصيص من نور فجر  
الغد. لا تقطع خيط الرجاء ولا تصفق فى وجهى الباب.  
قل لى: متى غده؟!

لكن مئات السنين مرت، والسؤال الحائر معلق  
مصلت، ومعه حير شعراء الأمة ونقادها. وجد الشعراء فى

السؤال فرصة لإظهار براعتهم اللفظية المدهشة، فجاءت تترى، من بعد، قصائدهم المعارضة تضيف أكداً إلى أكداً من نظم إثر نظم وتزيد في عدد قصائد الشعر العربي وكمها. ووجد النقاد مناسبة عظيمة لإبراز إحاطتهم الشاملة بعلوم النحو واللغة وتبحرهم المغرب في القواعد والأصول الصرفية والعروضية وأشعار الأولين. ومنذ البداية الأولى.. . اختلفوا!

قال بعضهم: «يا ليل الصب»... مضاف ومضاف إليه. و «غده» مضاف ومضاف إليه كذلك، والهاء ضمير الغائب تقديره: هو.. ذلك الحائر الذي يأتي ولا يأتي أبداً! وقال آخرون: «يا ليل.. الصب متى غده». الهاء عائدة إلى الصب، والليل هو المنادى.

وقال غيرهم: «يا» - والمنادى مجهول مكانه ثلاث فقط هكذا: (...). وتقديره: يا ناس، يا هوه، يا عالم، يا خلق الله، يا عرب! أسألکم للمرة الألف: «ليل الصب متى غده؟».

وقال مؤيدون: هذا هو الصواب والقول الذي لا

يعاب. فالغد يعود إلى الليل.. ليل الصب الحيران  
التعيس النكيس المقهور. فالغد يلى الليل، والصبح بعد الديجور.

قال فريق: الغد للصب.

قال آخر: الغد بعد اليوم.

قال ثالث: السؤال فى أساسه غلط. فكيف يسأل عن  
موعد الغد، وقد قيل: الغد لا يأتى أبداً؟!.

قال رابع: الزمان شىء نسبى. فالأمس واليوم والغد  
آن واحد. ما نسميه «الأمس» كان «اليوم» ذات يوم.. و  
«اليوم» سيصبح «أمساً»، و«غداً» سيصير «اليوم» ثم  
نسميه «الأمس».. وهكذا دواليك!

انبرى فريق غيره قائلاً: الزمان ليس نسبياً. الزمان  
مطلق. الزمان هو البعد الرابع. ألم يقرأ الحصرى نظرية  
النسبية عند آينشتاين؟! لو فعل لما سأل هذا السؤال السخيف!  
رد عليه سواه: الحصرى سبق آينشتاين وكان أعلم منه  
وأفضل. لكنه بدلاً من أن يضع نظريته فى قالب علمى  
جامد آثر أن يطلقها شعراً فيه الليل والصبابة والغرام  
والهيام.. ليسهر القوم جرأها ويختصموا!

قال نحوى متحذلق: لو أنه لم ينصب «الليل» ويجر «الصب» لما كان ثم إشكال.

عارضه نحوى زميل: بل هو رفع «الليل» ورفع «الصب». الليل منادى، والصب مبتدأ.

رد الأول: «الصب» مجرور رغم أنفك. مجرور بالكسر. فهو مجرور ومكسور. ومقهور!

واشتبك الجميع ولا تزال المعركة «حامية الوطيس» حتى الآن!

مئات السنين مرت، والسؤال عن الغد يبدو كعلامة استفهام ضخمة معلقة على حافة الأفق ونحن ننظر إليها بشوق المتلهّف، كأنها سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. يشغلنا هذا الغد ونحن نعلم أطفالنا: «إن غداً لناظره قريب». وننظر إلى المجهول وفي المجهول وقلوبنا تخفق، خوفاً وطمعاً في هذا الذي لا نعرف كيف يأتي وكيف يكون. نسفح أحلامنا وتهرب عيوننا من الواقع تحت أقدامنا إلى الأفق البعيد تترقب ظهور المنقذ. . الغد.

نسينا اليوم، الآن، اللحظة. خدّرت هذه الأمة بالرؤى



والأحلام، وصرفت أنظارها عن الواقع المرير المريض.  
جعلوا شعوبها تنظر إلى الماضي بعين وإلى المستقبل  
بأخرى، ومنعوها من أن تنظر إلى الحاضر حتى لا تثور  
وتنقض وتمز الأرض هزاً تتهاوى معه الأصنام والأوثان  
وتنطلق من ربة عبوديتها السياسية والاقتصادية  
والاجتماعية، وتحرر ذاتها بيدها، وتبنى «غدها» هي كما  
تريد له أن يكون.

الحاضر. اليوم. الآن. . الآن وليس غداً. هذا ما يهم.  
الحاضر بكل صراعاته التي يجب أن تفجر لتكشف  
الزيف والوهم والخداع - على امتداد الوطن العربي كله.  
واليوم بكل تفاعله الخلاق لتعرف جماهير هذه الأمة الحقيقة  
كل الحقيقة. والآن هو وقت الارتباط بالواقع بكل حنظله  
المر وفجائعه وانتكاساته وخياناته، لنغيره بأيدينا - نحن  
أبناء الأمة العربية - تغييراً به يكون غدنا الحقيقي الذي  
نريد.

لن نسأل بعدها: متى الغد؟  
فالغد لدينا سيكون. . اليوم!



● وطعن ابن ملجم علياً بالخنجر وهو يصلى فى  
المحراب .

● وتناثر دم عثمان على المصحف بعد أن ضرب  
بالسيف .

● ووضع محمد بن أبى بكر فى جوف حمار وخيط عليه .

● فرفع زياد ابن أبيه سيفه وهوى به على عنق أقرب  
المصلين إليه .

● ومرت ذات النطاقين فرأت ابنها عبدالله معلقاً لا يزال  
فقال: أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟

● وضرب الخليفة بالقبايب حتى مات .

● فخرج ابن . . . وشق عصا الطاعة فقبض عليه  
وخوزق! .

هل تبغى أمثلة أخرى؟

ارجع إلى كتب التواريخ القديمة، وقرأ نصوص التاريخ  
المدرسية الحديثة، تر كيف شوّه تاريخنا ومزّق شر تمزيق،  
تعرف كيف حول تاريخ هذه الأمة العظيمة إلى مجموعات

متناحرة وقبائل متقاتلة ورجال همهم الذبح والقتل وشغلهم  
الشاغل أن يفتكوا أو يفتك بهم .

ونحن نتحدث عن الغد يجب أن ننظر إلى الماضي بعين  
الاعتبار . والماضي هو التاريخ كله . وحين نتناقش في  
«إعادة كتابة التاريخ العربي» ينبغي إدراك أن التاريخ لا  
يقرأ للمتعة والتسلية بل يقرأ للاستفادة منه وبث روح  
العزة، والوحدة، والتلاحم، ومعاني النخوة والكرامة  
والشهامة في هذه الأمة . وإذا كان مؤرخونا القدامى أفرطوا  
في التركيز على الفواجع والنكبات، بسبب تركيزهم على  
الأفراد - خلفاء وأمراء وسلاطين وولاة وحجاباً، مما هو  
مبعث الاهتمام بالخصومات الشخصية والتناحر الأناني  
البشع، فإن إعادة كتابة التاريخ تعنى التركيز على الجماعة،  
على الشعب في مجموعه، وعلى مواقع النصر والفخر... لا  
سيما في ما يقدم لتلاميذنا وطلابنا .

أو ليس الاهتمام بموقعة «ذى قار» مثلاً وإبراز معانيها  
الكبرى وترسيخها في الأذهان أولى من رواية «حرب  
البسوس» ألف مرة؟

أوليس ذكر عمر بن عبد العزيز، وابن القاسم، أفضل  
من إيراد خطبة الحجاج وأضرابه؟

ألا نجد في انتصارات العرب وأمجادهم ما يملأ مئات  
المجلدات، وفي حضارتهم ومدنيتهم السامقة ما يشحن  
ذهن الطالب وفكره اعتزازاً بأمته وتقديراً لعروبه وفخراً  
بمآثرها الخالدات؟ مأساة تاريخنا أننا جعلناه تاريخاً  
للمآسي!!

ونحن نصوغ اليوم، لكي نصنع الغد، لا بد أن نعيد  
صياغة الماضي. على أسس جديدة من الوعي بأهمية  
التاريخ وإدراك لأبعاده.. لا بد أن نعيد الصياغة، وإلا  
فلا كان أمس لنا، ولا يوم، ولا غد!!

# اعلموا جيداً أيها الأطفال

هذا عامكم . . .

إذ قالت «الأمم المتحدة»: ليكون عام للطفل، فكان عام للطفل. ورأت هذا حسناً فقالت: ولتكن احتفالات الأمم بعام الطفل، فكانت الاحتفالات، ورأت هذا حسناً فقالت: فلتكن أنوار وألعاب نارية ومهرجانات وملصقات وإعلانات وبهجة، فكان ما أرادت. ورأت هذا حسناً فقالت: الآن أديت مهمتى وأن لى أن أستريح . . . واستراحت! . . .

هاص أطفال العالمين الأول والثانى وزاطوا. ملأوا الملاعب والمسارح وأطلقوا ملايين «البالونات» وشاركوا بعضهم بعضاً فى المهرجانات وتنقلوا بالطائرات النفاثة ليحضروا الملتقيات، وتبادلوا الزيارات الودية والبطاقات

البريدية المزخرفة والهدايا والدمى والألعاب.  
وضحكوا... ضحكوا كثيراً جداً. وكانوا سعداء للغاية  
بإرادة «الأمم المتحدة». تواب أطفال بوسطن ومانشستر  
وميلانو واستوكهولم وموسكو وبرلين ومارسيليا وفينا،  
وطوكيو، وحتى أطفال هاواي وسدني ومدريد، عمّتهم  
الفرحة بعامهم الذي أرادته «الأمم المتحدة»... سواكم يا  
أطفال العالم الثالث، إلا أنتم يا أطفال «العالم» العربي.

وأسفاه! أوشك عام الطفل العالمي على الانتهاء ولم  
تعلموا به. لم تعرفوا أن لكم عاماً خصص من أجلكم. لم  
تجتمعوا، ولم تبتهجوا بلقاء، ولم تضحكوا. ظل طفل  
بيروت مختبئاً خلف الجدار المهدم يتفادى طلقات المدافع  
الرشاشة ويبحث عن أشلاء أبيه تحت الركام، ولبث طفل  
القاهرة يجرى في الشوارع الحزينة يلتقط قرشاً يتعشى به،  
ولا يزال طفل المدن الفلسطينية كلها يبحث عن أية مدينة  
ينتسب إليها.

أواه! كيف يعرف طفل الصحراء الغربية أن له عاماً  
وهو المحروم من مبادئ القراءة والكتابة؟ أتى لطفل  
الصحارى المتدفقة بالنفط أن يجد الاهتمام به في زحام

الكروش المنبجعة أمام المصارف والشركات وصفقات البيع والشراء؟ من أين للطفل العربي أن ينعم بعامه - بل بطفولته كلها - في هذا الضجيج الهائل المهول من زعيق الإذاعات وصلصلة الجرائد وجلجلة المجلات؟ من أين له بلحظات يتمتع فيها ببراءة الطفولة، وهو لا يسمع إلا كذباً ولا يتنفس إلا نفاقاً وختلاً وغدراً، وهو يرى معالم الخيانة في وطنه والاستبداد بمصائر أهله، يتغذى هراء ويتعشى سخفاً وتقدم له أسوأ الأمثلة على مائدة الإفطار؟

واحسرتاه! عندما تكبرون، يا أطفال العرب، وتقرأون هذه الكلمات... أعرف أنكم ستلومونا وتصبون اللعنات على رؤوسنا. فقد أسأنا إليكم كثيراً. أرجوكم ألا تفعلوا. تمهلوا قليلاً ولا تقسوا على آبائكم أيها الأطفال.

ستقولون: أضعتم فلسطين، وسمحتم للخيانة بأن تبقى وأنتم تنظرون، وصرفتم النظر عن النظم الاستبدادية، وفشلتكم في توحيد الأمة، وأطلقتكم شعارات جوفاء ومسختكم شخصيتنا، وكنتم شيعاً وأحزاباً، وقاتل بعضكم بعضاً في السر والعلن.



نقول لكم: نحن جيل العذاب. استشهد منا مئات الألوف في سبيل تحرير الأرض العربية من الاحتلال والاستعمار، وحاولنا بناء دولة الوحدة بين أقطارنا مرات ومرات، وصارعنا قوى التخلف والعسف، وقاومنا الاستعمار القديم والجديد، وأعدنا لأمتنا لسانها، وناضلنا ضد عوامل القهر وقوى الطبيعة، وبذلنا الدم والعرق والدموع لنحقق لكم غدكم.

جيلنا لم يعرف للطفولة معنى. ولدنا شيوخاً قبلكم تنوء كواهلنا بالأعباء وتثقل ظهورنا بالأحمال، بكينا كثيراً من أجلنا ومن أجلكم يا أطفال العرب... وكنا نحلم.

حلمنا كثيراً بزغاريد الوحدة والانطلاق، وبأسباب المنعة والعزة، وبراية عربية خفاقة، حلمنا بالمجد يعود ويسمق. حلمنا بالحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية. كانت أحلامنا للأسف أضغاثاً... لم يتحقق منها الكثير.

ماذا نملك لكم؟

لقد تعبنا... أنهكنا... انهارت أحلامنا واحداً بعد الآخر.

تكالبت القوى ضدنا، وتألبت علينا من كل جانب،  
من الخارج والداخل على حد سواء. الأنياب والمخالب  
تتناهشنا. تسيل دماؤنا وتجرى على رقعة الوطن كله،  
وينزف النجيع مكوّناً مجرى أحمر من المحيط إلى الخليج.  
يتساقط الشهداء منا كل يوم. نذبح كل يوم بخنجر  
مسنون. ماذا نملك لكم؟

لم يبق شيء لا تعرفونه. صخب إذاعاتنا وحناجر  
خطبائنا وصراخ مقالاتنا أعلمتكم بكل شيء. أنتم أدرى  
منا بالحال!

لم يبق لكم في بقية عامكم إلا أن تحلموا مثلما حلمنا من  
قبل - احلموا هذا العام ولعشرات الأعوام القادمة.  
احلموا بالوحدة والحرية للوطن الأكبر، واحلموا باسترجاع  
الأرض السليبية، احلموا بالتقدم العلمي وبالثقافة  
والحضارة. احلموا بالمدن العربية الزاهرة. احلموا  
بالخلاص من الفساد والعفن وتحطيم رؤوس الخيانة  
والعار، وبعزة الوطن وكرامة المواطن.

واحلموا جيداً أيها الأطفال. لتكن أحلامكم بالغة

الروعة، في منتهى الكمال والجمال والجلال، لتكون أحلاماً  
جيدة عظيمة للغاية.

فمن يدري؟

قد تتحقق أحلامكم أنتم يوماً، فلا تندموا، إن كانت  
أحلاماً صغيرة!!

# تأملوا خارطة الوطن

افتحوا كتاب الجغرافية وانظروا في خارطة الوطن الأكبر. ماذا ترون؟ تفحصوا نظم الحكم في الأقطار العربية الاثنى والعشرين قطراً. ماذا ترون؟ جميع نظم الحكم المعروفة في التاريخ وغير المعروفة:

(مملكة - سلطنة - إمارة - دولة - جمهورية.

مملكة دستورية - مملكة غير دستورية.

جمهورية انتخابية - جمهورية رئاسية - جمهورية مدى

الحياة.

إمارة رئاسية - إمارة وراثية.

رئاسة حزبية - رئاسة قبلية - زعامة طائفية - زعامة

عائلية.

أقلية - أغلبية - نيابية - تناوبية -

يمينية - يسارية - غربية - شرقية - شمالية - جنوبية).

لا تفغروا أفواهكم الصغيرة دهشة أيها الأطفال، فقد دهشنا من قبلكم آلاف المرات. هكذا رسم أعداؤنا خارطة الوطن حين أيقنوا بخروجهم منه، لتظل أمتنا ممزقة الأطراف، ويمنعوا قيام وحدتها الكبرى، أكبر قدر ممكن من الزمان. هكذا حوّلوا صراعنا ضدهم وضد عوامل التخلف إلى صراع بين الرئاسات والزعامات ونظم الحكم المختلفة. هكذا افتعلوا الخلافات وعمّقوها وأرثوا نار الفتن وزادوها لهباً. هكذا نحن الآن في واقعنا... فكيف لنا بتحقيق حلم الوحدة الكبير؟

# واقروا وابتأسوا من التاريخ

وافتحوا كتاب التاريخ واقروا شيئاً منه . أعرف أنه كتاب مشوش ، غير أنه لا يستطيع أن يجحد حقائق التاريخ كلها . سوف يجبركم - على استحياء - عن دولة عظيمة دافعت عن العرب والإسلام ، وصدت الغزو الصليبي ، واندفعت جحافلها تكتسح نصف القارة الأوروبية وتدق أبواب فيينا خمسمائة عام ، ويختلط دم أبنائها بدم شهداء العروبة والإسلام في القرم وجزر اليونان وبلاد الصقلية ورمال فزان وأمواج سواحلنا في البحر المتوسط . ثم غزوها من الداخل - تماماً مثلما فعلوا معنا - وحولوها من نصيرة لنا إلى عدوة ، وحرّفوا لغتها وبدّلوا حرفها ومنعوا ارتفاع صوت الأذان في مساجدها العالية البنيان . . . خمسين عاماً مثّلوا بها ومسحوا تاريخها واختلقوا حولها الأكاذيب

ووصموها بأبشع الصفات، وحاولوا بترها من جسد الأمة  
الإسلامية وقطع كل صلة بينها وبين العرب والإسلام.  
تركيا... .

ها هي تكتشف الحقيقة. تعرف أنها منا وبنا وليست  
علينا. يدرك أهلها أن العرب إخوتهم، وأنه مهما حاول  
المعرضون فصلهم يظلون شرقيين مسلمين، بتاريخهم  
وبطولاتهم وأمجادهم. تعود تركيا المسلمة، وصوت المؤذن  
يهز أرجاء القسطنطينية من جديد، ويعانق مثقفوها  
وعلمائها ورجال فكرها إخوتهم العرب مثلما عانقوهم على  
مدى خمسة قرون متصلة من الزمان... ذلك في أول مؤتمر  
يعقد في أنقرة عن (العلاقات العربية - التركية ماضياً  
وحاضراً ومستقبلاً).

تركيا المسلمة تمد يدها وتنتظر أن نمد لها نحن أيدينا  
بالحب والإخاء.

هذا حلم جيد آخر لكم أيها الأطفال... أن تعاد  
الجسور بيننا وبين بلد إسلامي عظيم كتركيا، وترتفع  
الغشاوة عن أبصار الجميع فيدركوا أن لا قيام للعرب إلا

بالإسلام، ولا قيام للإسلام إلا بالعرب.

من يدري؟

قد يتحقق هذا الحلم كذلك!



# عن الأدب والثورة

ما هي الحضارة؟

مجموعة المظاهر الدالة على نمو وتقدم مادي .

وما الثقافة؟

مجموعة الظواهر الدالة على نمو وتقدم معنوي .

وما هي الثورة؟

عملية تغيير إلى الأفضل في المجالين المادي والمعنوي،  
أى في مجالى الحضارة والثقافة معاً.

ولا تخلو التعريفات الأخرى، على كثرتها، من الدوران  
حول هذا المعنى والارتباط به، ولا تعدو هذه الكثرة  
الاختلاف فى الألفاظ والتركيب باختلاف المفهوم فى  
الأذهان حسب درجة الحضارة والثقافة فى كل مجتمع

وحسب حظه من . . الثورة .

وقد تسأل: ما علاقة «الثورة» بالموضوع؟ ما صلتها بالأمر؟

وأجيبك: إذا فهمنا الثورة بمعنى التغيير إلى الأفضل، فإنها بالضرورة عملية استمرارية لا تتوقف، ولا يمكن لمجتمع يتقدم أن يتقدم بدونها. وليس ضرورة أن تكون «الثورة» قلباً لنظام حكم ما، أو حركة دموية تسيل فيها الدماء كالأنهار، أو مجموعة تتحرك لهدف من الأهداف، أو حتى جموعاً تتدفق لغاية من الغايات. هذه كلها - وغيرها - مجرد «وسائل» لتحقيق الثورة، هي في واقعها حركة مؤقتة آنية إذا وقفت عند قلب نظام الحكم سميت انقلاباً، وإذا تجمدت عند تحقيق هدف معين أو غاية مخصصة سميت انتفاضة، أو حركة، أو تصحيحاً. أما شرطاً الثورة الحقيقية فشيئان: الاستمرار والشمول. وعلى هذا الأساس يمكن الحديث عن ثورات لا تخصى في أقطار الأرض على مدار أيام التاريخ، ثورات مستمرة وشاملة دون أن يفتن الناس إلى أنها ثورة بالمعنى المتعارف عليه . . والعكس صحيح.

الاستمرارية: لأن التغيير إلى الأفضل لا ينتهي أبداً،  
فالحسن هناك دائماً ما هو أحسن منه، والجيد ثمّ دائماً ما هو  
أجود منه، وهكذا إلى ما لا نهاية، طلباً للكمال ورغبة في  
الوصول إلى أقصى الغايات.

والشمول؛ لأن الاكتفاء بالجزئيات يعيق التقدم الكلى،  
ولا يحقق النمو المتكامل في شتى جوانب الوجود  
الإنسانى... مادياً ومعنوياً. وهذا هو العجز.

من هنا نخلص إلى نتيجة بيّنة بذاتها وهى أنه لا تقدم  
للحضارة والثقافة بدون الثورة، ولا تحقق للثورة بدون  
حضارة وثقافة. فهى حلقات ثلاث متداخلة لا تنفصل  
إحداها عن الأخرى، إذا انكسرت حلقة منها انفصمت  
سلسلة الوجود المتكامل. وندرك أن الوجود الحضارى  
والثقافى يتحول تلقائياً إلى حالة الجمود والتصلب، حالة  
سكونية «ستاتيكية»، إذا أعوزته الثورة المستمرة، وهى  
حالة موات المجتمع، تماماً مثلما تصير الثورة إلى حالة  
الحركة «الديناميكية» فى الفراغ، إذا عدت ركيزتى  
الحضارة والثقافة، تدور حول نفسها وتدور إلى الأبد مثل  
أى كوكب منفصل عن مجموعة شمسية يمضى إلى ما لا

نهاية دون الارتباط بشيء في سدم من الخلاء والفضاء الكوني.

قلنا: إن الحضارة مادة، والثقافة معنى.

الحضارة إذن: مبان وطرقات ومزارع ومصانع وموانئ ومستشفيات ومدارس، وما إليها بسبيل. والثقافة إذن: فكر وأدب وفنون موسيقى وتصوير ومسرح وشعر وقصة ورواية، وما يتبعها - أو ما يسبقها - من أخلاق وعادات وتقاليد. الخ.

ولا انفصال، إلا بمقدار التميز الذي تواضعنا عليه. هنا أيضاً نجد ذلك التداخل المقدر، بل الامتزاج الطبيعي، الذي ينبغي ألا يغرب عن البال. فهل ما ذكرنا من مظاهر الحضارة سوى نتاج «الفكر»؟ وهل ما ذكرنا من ظواهر الثقافة متحقق في غير «المادة»؟.

تبقى حقيقة - ليست حقيقية - نقبلها بحكم الواقع وما تعارف أهلنا عليه. أعني ربط «الثقافة» بالفكر. . . وبالأدب على وجه التخصيص. وهنا تأخذ هذه الثقافة معنى المعرفة والعلم والدراية مع القراءة والكتابة. . . قراءة

التعلم، والكتابة المتعمدة لإبداء رأى أو إفادة أو إفهام أو  
محاجة وكلام.

فالمثقف لدينا هو الكاتب الأديب، والأديب الكاتب هو  
المثقف. . ولا بأس! من هذه المنطلقات عقد في مقر «اتحاد  
أدباء وكتاب» الجماهيرية (أسبوع الأدب الثورى). وكانت  
أيامه ولياليه حافلة جرى فيها النقاش والجدل حراً طليقاً  
بدون حدود ولا قيود. وكانت الغاية تحديد المفهومات  
والمسؤوليات، وتعيين الحقوق والواجبات. واتضح - بعد  
الأخذ والرد - ما يلي:

\* يمكن بناء الحضارة - المادة بقرار.

\* يحتاج تحقيق التعبير الثقافى - المعنوى (ما يعبر عنه ببناء  
الإنسان) إلى وقت أطول وصبر أوفر.

\* ترتبط الحضارة بالثقافة وبالثورة ارتباطاً لا انفصام له  
ولا غنى عنه. وتبين:

\* أن الأديب (المثقف) اللبى كان ثائراً بطبعه وبطبيعة  
جملة الظروف التاريخية، الاقتصادية والاجتماعية، وبحكم  
البيئة فى الماضى، وأنه أدى واجبه كاملاً بقدر ما استطاع.

\* وأنه «مستمر» في هذا الواجب باستمرارية الثورة في الحاضر والمستقبل.

\* وأنه أعطى ويعطى وسيعطى من أجل شعبه وأمته.

وتبقى من بعد ذلك جملة «وسائل» تحقيق الثورة الثقافية - أو الثقافة الثورية إذا شئت - وهي وسائل مادية (حضارية) يمكن بحثها بروية، بل يجب بحثها، لتحقيق التكامل المنشود. . تلاحم الحلقات الثلاث المكونة لوجودنا تلاحماً يجعل منها سلسلة متماسكة واحدة.

قديمًا قيل: البدايات دليل النهايات. وهي - لا جدال - تحدد الغايات. ومنذ سنوات ثمان عقدت (ندوة الفكر الثوري) وفيها دار الحوار، بل الصراع، جلياً دون غموض. ومنذ أسابيع عقد (أسبوع الأدب الثوري). وكان للفكر دوره المميز ما بين الفترتين، ولا بد أن يكون له هذا الدور في قادم الأيام. وإن الثورة التي ترتبط بالفكر هذا الارتباط، وتتخذ منه عماد وجودها وجوهر كينونتها، وتعبّر به عن استمرارية التغيير إلى الأفضل حضارياً وثقافياً وشمولية هذا التغيير، لا يمكن لها - ضرورة - إلا احترام

هذا الفكر ورعايته حرصاً منها على تكامل الحلقات  
وترسيخاً لوجودها هي ذاته .

حسن .

هناك في عالم أدب الجماهيرية أشياء جيدة جداً .  
وهناك أشياء حسنة للغاية .

لكن تظل الحقيقة المعروفة للجميع . الجيد ثم ما هو  
أجود منه . والحسن يوجد ما هو أحسن منه .

وهكذا . . إلى ما لا نهاية ! .

# الثورة الثالثة

سبتمبر.

نحن عرب الجماهيرية نفخر بهذا الشهر، ولنا الحق .  
وللعرب أن يعتزوا به ولهم الحق كل الحق . في فجر فاتحه  
ذاك المشهود انطلقت الشرارة المؤذنة بتغير نمط الحياة في  
بلادنا، وقلبت صفحة من التاريخ جديدة نكتب نحن فيها  
ما نشاء، وتحددت معالم مستقبل هذا الشعب، وأخذ مكانه  
تحت الشمس ليرى العالم في نورها صورته الجديدة النابضة  
بالثورة والحركة من بعد الانعتاق.

تسع سنوات مضت منذ ذلك الصباح الذي خرجت فيه  
جماهير شعبنا تمزق ستر الظلمة، وتنزع عن عينيها  
الغشاوة، وتنطلق هادرة كالرعد، عارمة كالسيل، نائرة  
كالعاصفة، تكسر قيودها، وترفض من بعد ذلك الصباح



أن تستذل أو تستغل .

الفتاح . الثورة . الحرية . الاشتراكية . الوحدة .

\* انفتحي يا بوابة القلعة العاتية، وافسحي الطريق  
أمام الجموع لتندفع في طريق التقدم والخلاص .

تفتحي يا زهور المستقبل، وأينعي يا شجرة الحياة  
الكريمة، ولدى ثمرأ طيباً يعم الناس . . كل الناس . . ولا  
يستأثر به أحد دون أحد . افتحي عيونك الواسعة يا أجيال  
الغد وحدّقي في الشمس ولا يطرف لك جفن .

\* ثورة على الجمود والركود والقيود . جامحة هي لا  
تنافق ولا تهادن ولا تتهاون . شجاعة في الحق، جريئة في  
الواجب، غير هيّابة ولا وجلّة، لا تخشى في الله لومة لائم .  
انتفض أيها الشعب المكبل على مدى القرون الطويلة  
وحطم أغلالك الحديدية، واملك زمام أمرك بيدك .  
فلتنتصب قامتك عالية ليراك الجميع ويخافك الجميع ويحترم  
إرادتك الجميع .

\* ثورة من أجل الإنسان على هذه الأرض الطيبة .  
تحرّره من الخوف والعوز، وبها ينعتق من معوقات الخارج

والداخل. ترفع عنه وصمة الاحتلال الأجنبي وعار قواعده، وتثار للآباء والأجداد فتدفع ببقايا الفاشست إلى عرض البحر ليعودوا من حيث أتوا، وتخلع أنياب شركات النفط مصاصة دماء الشعوب وتستخلص حق الشعب منها، وترفع راية حرية الفرد والمجتمع في هذا الوطن.. فلا سيد غير الشعب الذى منه يأتي كل شىء وإليه كل شىء يعود بها تندفع الجماهير لتحكم ذاتها بذاتها وتسوس أمرها بنفسها، وتزحف نحو الضوء خارجة من ظلمة الكهوف السحيقة دون خوف ولا وجل.

\* ثورة ترفض أن يكون فى أرضنا موقع لمحتكر أو مستغل. تعمم الخير على الجميع، وتعديل فى التوزيع بين أبناء الوطن، تقول للمحسن: أحسنت.. فيثاب، وللمسيء: أخطأت.. فله العقاب. لا مظلوم، ولا مغبون، ولا همزة لمزة، جمع ماله وعدده، وحسب أن ماله أخلده. سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الخير الصالح. تعلنها اشتراكية نابغة من ديننا، تعيد له حيويته وتثبت أنه الصالح لكل زمان ومكان.

\* ثورة تمد ناظرها إلى هذه الرقعة الواسعة من المحيط إلى الخليج، تهتف بأبنائها: هلموا اشبكوا أيديكم وتكاتفوا لصد العدوان ودفع الهجمة ورد الكيد. توحدوا صفوفاً صفوفاً وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً... كيلا تزدردكم الحيتان الفاغرة الأفواه. تيقظوا قبل أن يعمكم السيل فتذهبوا مع زبده مزقاً مشتتة يبتلعها اليم في نهاية المصب. يا هذا الجسد الواحد! فلتتماسك أعضائك الرخوة، ولتهب أطرافك المتهدلة، ولتصبح عملاقاً كما كنت يوم كنت ذلك العملاق.

في كل مجال تضرب المثل، وفي كل ميدان تقدم الأسوة الحسنة؛ في السياسة والفكر والاقتصاد والاجتماع والثقافة والفن والصناعة والعلم. تبني وتبني دون كلل، وتنطلق كالريح تجتث الجذور العفنة وتنقى التربة الطاهرة من الأعشاب الضارة، تثير الأرض وتسقى الزرع.

هذه هي الثورة الشاملة!

# علم تغيير المجتمع

يعرّفون الثورة بأنها: علم تغيير المجتمع . ويضيفون شرطاً: إلى الأحسن .

فهى إذن «علم» بالمعنى المحدد للكلمة . هى «فن» بالاصطلاح المتوارث القديم . . تقوم على الأسس التى يبنى عليها العلم أو الفن . ذلك لأن الثورة فى أساسها «فكر» له خطته ومنهجه وأهدافه القريبة والبعيدة .

خطة مدروسة للفعل ، تحسب كل حركة ، وتراقب الظروف والأحوال ، وتتحسب للمواقف ، وتميز بين الأعداء والأصدقاء .

ومنهج واضح محدد الملامح ، يعرف منطلقه وتدرّك مبادئه وتبين سماته منذ اليوم الأول للفعل .

وأهداف نابغة من الواقع فى طريق المثال ، سامية عزيزة

قد تبدو بعيدة التحقيق صعبة المنال لكنها - مع العرق  
الناضح والدم المبدول - تصبح حقائق واقعة مدهشة رائعة  
تأخذ بالألباب .

هذا كله في سبيل «تغيير المجتمع» وتبديل أحواله وإعادة  
تشكيله من جديد وصياغة كينونته لصالح صيرورته :  
تغييره من مجتمع ساكن «ستاتيكي» يلفه الخمود ويشمله  
الركود وتحيطه البلادة، إلى مجتمع متحرك «ديناميكي»  
ملتهب نشط مؤثر فعال، يموج بالحيوية ويفور بالثقة في  
النفس والمستقبل على حد سواء . وهذا هو شرط التعريف :  
إلى الأحسن .

إن التغيير قد يقع في أي مجتمع بحكم سنة الحياة  
وناموس الوجود وهو هنا يسمى تغيراً وليس تغييراً . قد  
يكون في الشكل أو في المضمون، وقد يكون تغيراً إلى  
الأسوأ بحكم مؤثرات خارجية وعوامل أجنبية يأخذ بها  
المجتمع بوعى أو بدون وعى، ولا ثورة هناك ولا ثوار .  
مهمة «الثورة» أن يتم التغيير إلى الأحسن . . . بوعى . .  
أعنى : بخطة، ومنهج، وأهداف .

هنا نرجع إلى القرآن الكريم، شريعة المجتمع في جماهيريتنا، به نسترشد ومن آياته نقتبس. ففيه ورد: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (آية: 11 - سورة: الرعد). وهي آية واضحة الدلالة على أن الحكم الإلهي ترك للقوم، أو للشعب أو الجماهير، عملية التغيير ليقوموا هم بأنفسهم بها، فلا ينتظرون معجزة إلهية تأتي من السماء لتحوّل بؤسهم سعادة وتخلفهم تقدماً وسكونهم حركة تنبض بالحياة. وهذا يعنى وجوب وعيهم بواقعهم وتطلعهم إلى مستقبل أكثر إشراقاً، ومن ثم: الثورة على هذا الواقع في سبيل المستقبل.

وليس عجيباً بعد هذا أن ترد فكرة «الحسن» و«الإحسان» بمعنى الخير والالتقان والتمكن من الأمور وصياغتها بالدرجة القصوى من الأحكام، وترد مشتقاتها في الكتاب العزيز ما يقرب من مائتي مرة، وكلها تحض على هذا «الأحسن» وتدعو إليه وتعد بثواب المحسنين عملاً في يومهم وغدهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ (10: الزمر)، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ (30: النحل).

وليس غريباً، كذلك، أن يجمع مثقفو هذه الأمة على أن خلاص الفرد في المجتمع وسعادته لا تتم إلا بثلاث ركائز رئيسية، هي مراحل بعضها فوق بعض درجات: أولها؛ الإسلام - بمعنى التسليم والقبول والرضا بمنهج في الحياة والسلوك معروف. وثانيها؛ الإيمان - بمعنى التصديق والإقرار والاعتناق للمبدأ والذود عنه. وثالثها؛ الإحسان - وهو المرتبة العليا تكون من بعد الإسلام والإيمان. وهي قمة تحقق الوجود الإنساني المرتبط بالمثل والقيم المعتمد على المبادئ الرفيعة، الساعى في سبيل الخير من أجل المجتمع والناس. وهذه حقيقة الثائر على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، الممتلىء ثقة، المقتحم الصعاب في سبيل «الأحسن» المتطلع أبداً إلى المستقبل!

# الذهب الذى لا لون له

فإذا امتلك المجتمع الثائر ما ذكرناه كان لا بد له لتحقيق ثورته من أسلحة تتعدد وتنوع. بيد أن أهم سلاح فى يد الثوار هو: الوقت.

ونحن صغار علمنا أساتذتنا أن: الوقت من ذهب. وإذا كان الذهب هو ما تقيّم به الأشياء، فإن الوقت الذهبى هو أعلى الأشياء وأثمنها. فلا الذهب الأصفر، ولا الأسود، ولا الأبيض، ولا ألوان قوس قزح كلها تعادل فى قيمتها هذا الذهب الذى لا لون له. إنه السلاح الماضى فى يد الثورة. ومن هنا كان صحيحاً القول بأنها «فى سباق مع الزمن».

الخروج من دائرة التخلف، وبناء المصانع والمدارس والمنشآت، وتفجير القوى الكامنة، وإطلاق القدرات



المعطلة، واستغلال خيرات الأرض، وتمكين الجماهير من إدراك الحقائق، وتنمية الكفاءات العلمية والتقنية، والدخول إلى عصر الصناعة المتطورة، ومصارعة القوى المتكاملة المتوثبة، وحماية الوطن والدفاع عنه، والتبشير بدعوة الثورة، وتحرير الأفراد من الهواجس والمخاوف، وما إليها من مبادئ «الثورة الشاملة».. تحتاج كلها إلى عنصر الزمن..

من هنا تأتي هذه «الفورة»، في طبيعة «الثورة». هي تدرك قيمة الوقت وتعرف أهميته، وهي تريد أن تختصر الزمان، وتلحق بركب التقدم وتعوض ما فات بأسرع ما يمكن.. بل أسرع مما يمكن. فالإمكان هنا يتحول إلى «وجوب».. ضرورة حتمية لا غنى عنها لانتصار الثورة وتحقيق أهدافها. ولا يمكنها.. أبداً لا يمكنها.. الانتظار!

\* \* \*

تسع سنوات مضت منذ الفاتح من سبتمبر.

وألقت - هنيهة - إلى الوراء لأقارن بين ما كان قبله وما هو كائن الآن. وأجد أن أشياء عظيمة ورائعة من الأهداف تحققت، وأن غيرها في الطريق إلى التحقيق. ففي هذه

السنوات القليلة قفزنا في مستقبل الزمان قفزات كانت  
أحلاماً تراودنا نتطلع إليها بلهفة وشوق، وقد تأخذ بعضنا  
الدهشة مما حققناه، ولا يصدّق.

لن نتوقف عن الحلم في المستقبل، فإن الأعمال المعجزة  
كانت أحلاماً للأفراد والجماعات ذات يوم.

فلتحلمى يا أجيال الغد، ولتحدّقى فى الشمس بعين لا  
تطرف، ولتمضى فى طريق النور والحرية والتقدم . . طريق  
الثورة الدائمة!

# فن تحطيم الجمال بحم الكبيرة

قبيلة بنى كلب كانت أفضل حالاً منا .  
بطون هذيل وخثعم ومخزوم  
كانت خيراً منا .

قبائل خزاعة وقضاعة وبنى أنف الناقة كانت أكثر وعياً  
بأبعاد المواقف الثقافية، وأكثر إدراكاً لطبيعة ظروف الثقافة  
وأشد اعتزازاً بالمتقنين من أبنائها . كانت ألصق بهم، وهم  
بها الصق . كانت إذا نبغ فيها شاعر، أو استشفت بوادر  
نبوغ أو بداية تطلع واعد من جملة أبيات جيدة السبك  
سليمة البناء متماسكة التعبير، أو حتى من بيت واحد  
ينطلق بإلهام عبقرى، دقت الطبول ونحرت الذبائح  
ومدت الأسمطة وتكأأ الجميع يتحلقون حول الشاعر  
الواعد، وله الصدارة في المجلس وله بداية الحديث  
ونهايته .

كانت العرب «تعلن» عن شاعرها.. تفخر به وتعتر.. .  
وتدفعه إلى مزيد من الإبداع والخلق بمزيد من التشجيع  
والتوقير والإكبار. كانت تقول له: «نحن معك.. نحن  
وراءك.. نحن ننصت إليك، ونحفظ قصائدك ونردها  
ونقدرها. مزيداً من العطاء أيها الشاعر، مزيداً من  
الكلمات المجنحة، مزيداً من أغنياتك الرائعات»!! .

كان الشاعر يلهب خياله، وتسبح روحه في السماوات  
العلی، يستمد وحيه من عالم العرائس الحسان، ويزور  
وادی عبقر ينصت إلى أناشيد أهله ليصوغها لغة مفعمة  
بالجمال ويسبكها قصائد خالدة على مدى الدهور. وكيف  
لا يفعل وهو يعلم أن الجميع ينتظرون كلماته الصادحة  
على شوق، ويصفقون طرباً كلما صدح ويمزقون جلابيبهم  
من شدة الجذب والوجد كلما سمعوا منه تلك الكلمات؟! .

رحم الله بنی كلب وبنی أنف الناقة!

رحم الله أيضاً أولئك الذين كان الشاعر يأتيهم فيقف  
في الديوان، والكل خاشع منصت، فيتمايل زهواً وهو  
ينشد قصائده، ويرفع رأسه ويجول بعينه يرى وقع كلماته

الرائعات، ثم يختم فيرتفع صوت صاحب الديوان: «يا غلام! احش فمه ذهباً.. كلاً.. كلاً.. احشه زمرداً وياقوتاً وزبرجداً.. احش فمه لؤلؤاً عشر مرات!!».

رحم الله ذلك الذي كان يجيئه مترجم فلسفة اليونان ورياضيات الهنود وحكم بنى ساسان، فيكافئه على جهده المبذول وعرقه المنضوح وسهره الليلي الطوال ينقل علم الدنيا إلى لغة العرب ومعرفة البشرية إلى لسان الضاد على ضوء شمعة يذوب مثلها كل ليلة، بوزن ما جاء به جواهر وأحجاراً كريمة.. ولو كان مكتوباً على ألواح من رخام!

بهذا كان الشعر العربي الخالد، وبه كان العلم والمعرفة، وكانت حضارة العرب ومجد الإسلام.

.. بالتشجيع ..

.. بالاحترام ..

.. بالكلمة الطيبة والجزاء الحسن ..

كان المثقفون، شعراء وكتاباً وفقهاء ونحاة ومناطقة ومؤرخين وأطباء وكيميائيين وما شئت من الطوائف،

موطن الرعاية والحفاوة والتقدير. كانوا يشعرون باحتضان المجتمع لهم، على مختلف مستوياته، فكان عطاؤهم غزيراً ونتاجهم بقدر ما قبلوا به من تكريم. حتى إذا توفاهم الله (وكل حي للموت) كانوا يعلمون أن ذكرهم سيخلد، وأن ذكراهم لن يهال من فوقها التراب.

فكيف.. كيف.. بالله عليك.. نعجب بعد هذا من شموخ حضارتنا وروعة ماضيها وعظمة ما ترك لنا الأجداد؟!.

وكيف.. كيف.. بالله عليك.. نطلب الآن ما كان، ونلح في الطلب، ونضرب كفاً بكف حين نرى ما نرى ونقرأ ما نقرأ ونكتب ما نكتب؟!.

«فارجع البصر». ماذا ترى؟

أصبحت الثقافة لعنة تلازم صاحبها. فكأنما هو طريد الجميع. هو المتهم الأول، وهو الملعون الأول والأخير، وهو السبب في كل شيء وهو النتيجة في الوقت ذاته. عليه يستمطر السخط وفوق يافوخه تهبط القواديم. إن أقبل استقبال بالوجوم والوجه القمطيرير، وإن أدبر استدبر

بالعبوس ومط الشفاه. همه الدفاع عن نفسه، وشغله  
الشاغل تبرئة ساحته، ووقته ضائع في اللهاث بين صد  
السهام، وردع اللثام، والبحث عن لقمة الطعام!!

«ثم ارجع البصر كرتين». فماذا ترى؟

«ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير».

الشاعر، أى شاعر، يُنحر، أو «يُنْتحر»، بدلاً من أن  
تنحر له الذبائح. والمتقف، كاتباً وعالملاً، تدق رأسه بدلاً  
من أن تدق له الطبول.

وتمد للجميع السنة حداد بدلاً من أن تمد لهم الأسمطة  
والمآدب.

«ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت».

على امتداد رقعة هذا الوطن الكبير، من محيطه إلى  
خليجه، ومن بحره إلى صحرائه، يُنبذ مثقفوه نبذاً ما له  
من نظير. فماذا جنوا ليضموا إلى زمر الجري والمبروصين  
والمجدومين؟ ماذا ارتكبوا من إثم ليلعنوا على مدى الأيام؟  
ما الذى جرى لهذه الأمة حتى تفرط في كنزها المكنوز،  
عماد نهضتها وأساس تقدمها وصلب حضارتها؟ أهى

علامات التأخر والانحطاط؟ أم هي علامات الساعة حين  
يسود الجهل وتتسنى الجهالة ويصبح الشاعر والكاتب  
والأديب.. . يصبح المثقف كصالح في ثمود؟!!



# الأهياء منهم والأسموات

دعك الآن من هؤلاء الضارين في مناكب الأرض .  
دعك من الغرباء العائشين، أبناء السبيل، عيال الله،  
المثقفين في الوطن العربي . . . وقارن :

كل الأمم تفخر بنوابغها وتشيد بذكراهم . . ما عدانا .  
للإنكليز شكسبير وشوسر ومارلو وبايرون ومن  
شاكلهم، وللفرنسيين فولتير ومونتسكيو وروسو وهوغو ومن  
شابههم، وللطليان دانتي ومن مثله، وللإسبان سرفانتس  
ومن ناظره، وللروس دستوفسكي وغوركي وأسماء أخرى  
للهنود وأهل الصين وحتى . . الأميركيين شمالاً وجنوباً .  
كلهم معززون مكرمون تنصب لهم التذكارات وتنشر  
أعمالهم وتدرس آلاف المرات . . . سوانا، فنحن  
مشغولون، مشغوفون، بتحطيم رجالنا وأفذاذنا .

تظهر الدراسة تلو الدراسة لتسيء بدلاً من أن تحسن .  
وتتري البحوث لتبين المعايير والمثالب ، وتنفر الجيل الجديد  
من الجيل القديم فالأقدم فالأقدم حتى أبينا إسماعيل . .  
عليه السلام!

هكذا نحن . .

منذ «مثالب الوزيرين» حتى «سرقات المتنبي» إلى  
«ماسونية» الأفغانى و«استعمارية» محمد عبده وعلاقات  
الكواكبي «المشبوهة» ، و«انحرافات» الشارف و«لخبطات»  
المهدوى . . . إلى السياب وقباني . . وما شئت من الأسماء  
حية «تلفت» وميتة لا «يلتفت» إليها إلا باللعنات!

ماذا بقى لنا بعد أن برعنا فى هذا الفن الرهيب: فن  
تخطيط الجماجم الكبيرة . . . الأحياء منها والأموات؟! .

ماذا ينتظر من المثقف إذا كان هو لا ينتظر سوى النكران

والجحود؟

ما الذى يمكن عمله فى أمة صار هواها تعذيب الناهيين  
من الأبناء، وصلب النابغين النجباء، ومضغ أكباد الكتاب  
والأدباء؟! .

لا شيء. لا شيء مطلقاً سوى هذا الذى يحدث.

نحن بين طريد وطارده، وشريد وشارده، وصادر غير وارد. نحن بين لاعن وملعون، وغابن ومغبون، وإنا لله وإنا إليه راجعون! فهل هذا حال أمة تبغى أن تأخذ مكانها تحت الشمس؟ وهل هذا سبيل بناء الحضارة؟ وهل هذا طريق إعادة الأجداد؟

والحل؟.. تسألنى.

وأجيبك: أن نعود كما كنا. نحتفل بالنبوغ، ونفرش له الطريق بالكلمة الطيبة، ونحتضن البراعم بأكف المودة والحب، ونثنى على المحسن المجيد أياً كان وكيف كان. يجب أن يصب مزيد من الزيت فى قناديل أهل الثقافة والعلم لتزداد ذبالاتها توهجاً وسطوعاً، لا أن يسخن ويدلق على رؤوسهم أجمعين. يجب أن يعاد النظر فى «مكانة» المثقف العربى و«مكانه». يجب أن ينظر بتقدير وتوقير إلى دوره الحضارى وعطائه الفكرى وأن «يُحترم» هذا الدور على المستوى المادى والمعنوى وأن يعطى حقه كاملاً غير منقوص لنطلب منه بعدها أداء حق المجتمع عليه.

وعندما تنتهي طوابير المشردين والمطاردين والخائفين،  
وتختفي ظاهرة «الذلة الثقافية» بكل ذيولها ومظاهرها،  
ويعرف المثقف الحقيقي أن له حقاً معلوماً وواجباً مفهوماً،  
يمكن أن تنطلق «الثورة الثقافية» بكل معانيها وشموليتها.  
يمكن بعدها أن تتفجر القدرات الإبداعية العظيمة. يمكن  
أن نبني حضارتنا الجديدة الشاخحة الصرح.

و.. نعيد ما كان!



من "الأُسبوع النُقَافِي"

1977 - 1976



## لغة الرُّبُوزِيَّةِ !

كانت أوَّل آية في قرآننا العزيز الحكيم: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وكان الحرف كريماً عند الله حتى أقسم به في مفتح عديد من السور، ثم قرن الحرف والقلم فأوحى ﴿ن. والقلم وما يسطرون﴾.

وفي سجل أهل الكتاب يفتح يوحنا إنجيله قائلاً: (في البدء كان الكلمة. وكان الكلمة عند الله. وكان الكلمة الله).

فلنصرف النظر عن تلك المناقشات الطويلة المملَّة.. ولنأخذ بأبسط معاني الكلمة. فلنقل إنها (اللغة). لنقل إنها (اللوغوس) حسب لسان بني اليونان. ولنلاحظ قرب الكلمتين في اللسان العربي واليوناني.

فلو لم تكن الكلمة عزيزة لما كانت لها هذه المكانة



الرفيعة في أصول الأديان، وعند مختلف الحضارات ومتعاقب المدنيات، ولدى الإنسانية قاطبة منذ بدأ الإنسان ينطق بها لسانه ويفهم جنانه. فهي التي ميزت الإنسان عن الحيوان وهي التي حفظت له تاريخه وعلمه وحكمته وبها فضل على العالمين.

فصونها إذن صون لكرامة الإنسان ذاته، وفي احترامها تقدير له وإكبار.

والكلمة سلاح أيضاً، إنها تحيي وتميت. هي سلاح في يد المناضلين في سبيل حريتهم، تلهب الأرواح بالحماسة والغيرة فتندفع غير مبالية ولا مكترثة من أجل الخلاص من العبودية أيّاً كانت وكيف كانت. بها تبدأ الثورات وبها تستمر وبها تحقق أهدافها العاجلة والأجلة. وهي سلاح ذو حدين إذا أسىء استعماله أمكن أن يتحوّل إلى أداة هدم رهيبة لا تصيب إلاّ المقتل. وبها تبني المجتمعات الجديدة المنتفضة بعد طول رقاد حين تحمل الكلمات الأفكار، تنشرها بين الناس وتبذرهما في أفئدتهم وعقولهم، وتوقظ نفوسهم، وتجعلهم المؤمنين بها المدافعين عنها أيما دفاع.

والكلمة - من بعد هذا كله - واضحة جلية لا تحمل الغمغة ولا الهمهمة. فإن أصابها أى منها تحوّلت إلى طنين كطين الذباب لا يستبين له معنى ولا يؤدي إلى غاية سوى غاية التشويش والإزعاج، واعوجّت الحروف فيها والتوت حتى باتت رطانة لا تفهم وجمجمة لا تدرك، واستوت وإشارات الأذى من الحيوان وإيمائه بعضه لبعض.

هل يمكنك أن تدرك من لغة العصافير المتجمعة فوق الأشجار عند ساعة الغروب إلّا: «زيوزيو»!!؟

قد تكون لغة - كما يزعم بعض أهل العلم - وقد لا تكون. وهى إن كانت كذلك صارت (لغة خاصة) بفريق خاص لا يتعدّى التفاهم بين أفرادها هذه الزقزقة المرذدة والشقشقة المعادة المكررة. تستطيع أن تسمعها كل يوم، وهى هى لا تتغير ولا تتبدّل ولا تتطوّر. منذ ملايين السنين والعصافير لا تملك إلّا هذه «الزّيوزيو».

وشتان بين من (يزووك) بصوت قد يعلو إذا تجمّع فيغطى على بقية الأصوات، وبين من (ينطق) بلسان مبين لا تلغثم

فيه ولا تعثرُ. إِنَّ الأوَّلَ يرُدُّ ما حفظه بالتلقين أو بالطبيعة، والثاني يفكر في ما يقول. أوَّلها قد لا يعلم كنه ما يصدر من صوت وثنانيتها يعمل ذهنه قبل أن يعمل لسانه الذى بين شذقيه ليعبر عن شىء في نفسه. . أو في عقله. أوَّلها واحد من ملايين الكائنات المصوِّتة وثنانيتها إنسان ناطق. وهذا هو الفرق الأكبر والأهم. الأوَّل لا يعرف معنى الكلمة، ولا يعرف أنه يتكلم، والثاني يملك الكلمة. . لأنه أمر أن يقرأ فقرأ وأدرك السر الأكبر. . سر الحرف المقدَّس. .

إنَّ من يُعطى السر الأكبر يجب أن يتقيَّد باحترامه وتقديسه، يجب أن لا يتذله ولا يكون ممن يحرفون الكَلِمَ عن مواضعه. ذلك لأنَّ هذا التحريف هو الذى يقلب الكلمة من سيف مساول في سبيل الحق والخير والجمال إلى خنجر يطعن الظهر في الظلام، ولا يكون التحريف أبداً في لغة جليَّة واضحة الثبرات، يرتفع بها الصوت قوياً غير مرتجج على صاحبه. إنَّه يكون دائماً عندما يغمغم به أو يهمس به همساً. . فقط ليس غير!

# الثورة الكبرى

ما الذى يتبادر إلى ذهنك عندما تسمع الحديث عن (الثورة الثقافية)؟ أعنى: ما أول شيء تفكر فيه حين يعرض هذا الأمر فى مجلس أو مؤتمر أو تنصت إلى متحدث عنه فى المذياع مثلاً؟

أوشك أن أسمعك تقول: الجامعة. المدرسة. الكتاب. الصحيفة. الإذاعة. المركز الثقافى. المطبعة. المكتبة. المثقف...

هذا حسن جداً. فقط قطعنا نصف الطريق. غير أن علينا أن نقطع النصف الآخر حتى نبلغ آخر الشوط.. . ليس كذلك؟ ورغم اتفاقنا فى النصف الأول إلا أنه يبدو لى ضرورة الاتفاق فى النصف الثانى، وحتى لا يمضى كل منا فى سبيله.. . دون وداع. وفى ظنى أن المسألة فى حاجة

إلى شىء من التوضيح.

كان الإعلان الثانى عن الثورة الثقافية فى ملتقى أساتذة الجامعات ذا دلالة ومغزى. فليس ثمّة أجدر بزيادة هذه الثورة غيرهم، باعتبارهم أبناء المجتمع الذين حصلوا - بما أتاحه لهم هذا المجتمع وبما بذلوه هم أنفسهم من جهد - على نصيب من العلم فى مختلف التخصصات يمكنهم من الإدلاء بالرأى الحر المسؤول الواعى، المدرك لأبعاد القضية.

\* \* \*

غير أن هذا الإعلان فى هذه المناسبة وأمام أساتذة الجامعة يجب أن لا يعنى شيئاً آخر سوى تحميل هؤلاء الأساتذة مسؤوليتهم التاريخية والربط بين أكبر مؤسسة علمية فى البلاد وبين المجتمع، ليقوموا هم بواجبهم فى زيادة الثورة الثقافية، التحاماً بالشعب وتعبيراً عن تطلعاته بأسلوب علمى منهجى واع بعيد عن التوقع خالص من انفصال الفرد عن المجتمع، أو الجزء عن الكل.

\* \* \*

وقد ذكرت لك منذ قليل ما قد تفكّر فيه، أوّل مرة، حين تسمع حديث (الثورة الثقافية). ثم بينت كيف أعلن، للمرّة الثانية، عنها في ملتقى أساتذة الجامعات. وهنا نقف لتوضيح أمر مهم للغاية.. هو: حقيقة هذه الثورة. معناها ومفهومها.

في بلادنا، وفي الوطن العربي كلّه، ارتبطت كلمة - الثقافة بمعنى العلم والتعليم. هذا رجل مثقّف أى أنّه تعلّم وقرأ واستوعب حظاً - يقل ويكثر - من المعرفة الخاصة والعامة. وحين يرد الكلام عن الثقافة لا نكاد نفهم منه سوى ما يشير إلى الكتاب ونحوه، حتى صارت الكلمة ذات مدلول خاص قد ينفع وقد يضر. ومن هنا كان فهم الكثيرين للثورة الثقافية على أساس ما يتعلّق منها بهذا الموضوع. غير أنّ هذا غير صحيح على الإطلاق.

\* \* \*

ما ينبغي تبيانه هو أنّ عبارة (الثورة الثقافية) تعنى في التعبير الإنكليزي (كلتشرال رفلوشن) - بينما يقابل معنى (المثقّف) تعبير (ذى انتلكتشوال). ومعدرة لهذه المقابلة

فهى - للأسف - التى ستحسم الموقف. وحين نستعمل التعبير الأجنبى فإن المعنى لا يكون «ثورة فى التعليم وأدوات المعرفة وإيصال الأفكار» كما هو الآن فى العربية بل يصبح «الثورة الحضارية» أعنى.. الثورة فى المجتمع وتركيبه وتقاليده وعاداته وأنماط سلوكه وطرق معيشتة. عملية تغيير شاملة يستبدل فيها الفاسد بالصالح.. لبناء جديد على أسس يتفق عليها، يقودها المتعلمون لصالح عامة الشعب.. أى يقودها المثقفون.

\* \* \*

وهنا نأتى إلى التعبير الأجنبى مرة أخرى للحديث عن «المثقف» فهو عندهم: «الذهنى».. المشتغل بالمسائل الذهنية أو العقلية أو الفكرية. ذلك الذى يعمل عقله فى المسائل العامة أو الخاصة للوصول إلى حقيقتها مستعيناً بقراءة تجارب الآخرين والاطلاع على أفكارهم، لاتباعها أو مناقضتها أو الإضافة إليها أو الحذف منها.

فالمثقف هنا بالضرورة متعلم أو عالم. لكن المتعلم ليس بالضرورة مثقفاً. فهو قد يكون عالماً بالكيمياء أو الفلك أو الذرة أو زراعة النباتات، لكنه ليس مثقفاً بالمعنى الأجنبى.

ولا يلغى هذا دوره في المجتمع بقدر ما يحدّد له مجاله الذي يتحرّك فيه.

\* \* \*

هنا منتصف الطريق. فإلى ماذا نشير لنكمل الطريق كله؟

نشير إلى أنّ (الثورة الثقافية) لا تعنى الكتاب، والجامعة والمدرسة، والمطبعة، والصحيفة، فحسب. بل تعنى: تغيير المجتمع إلى الأحسن. إعادة البناء الحضارى. الرؤية الجديدة لتيار الحياة المتدفق. دفع هذا التيار في مسار أفضل. تنقيته من الشوائب والمعوقات. النظر بغضب - أعنى غضب الثورة - إلى كل ما يكدر صفاءه. إزالة الرواسب والطحالب والعمل الجاد لتعميق مجرى التيار. وهذا ما يدخل تحت باب: الأصالة والتجديد.

\* \* \*

الثورة الثقافية إذن هي الثورة الاجتماعية، يتداخل فيها أفراد المجتمع بمختلف تخصصاتهم. تهتم بالأسرة وبشؤون المرأة والرجل على حدّ سواء. بالطفل. بالنادى. بالتقاليد.



وبتكوين عادات جديدة، وأنماط سلوك جديدة، وبالنظرة الجديدة إلى الحياة. وهي تتم عادة إماً مصاحبة للثورة السياسية والاقتصادية، وإماً بعد تهيئة المناخ المناسب عن طريقها. فهي إذن: الثورة الشاملة. أى: الثورة الكبرى.

\* \* \*

يبقى إذن دوران . . أحدهما دور المثقفين (واستعمل التعبير على كره. إذ هو ليس تعبيراً عربياً إلاً تجاوزاً. وأفضل منه: العلماء أو المتعلمون) وهو دور لا بد من أدائه بحكم بروزهم في تخصصات لا غنى للمجتمع عنها وعن الأخذ برأيهم فيها.

والآخر: دور الأجهزة الثقافية، وهنا يأتي ما ذكرنا عن الكتاب والإذاعة والجامعة والمدرسة إذ هي أدوات توصيل الأفكار وطرحها ومناقشتها، هي باختصار: أدوات التشوير.

\* \* \*

وعلى هذا الأساس نغضى يداً في يد . . أستاذ الجامعة،

وطالبها، وإمام المسجد، والكاتب، وقادة النقابات والاتحادات - رجالاً ونساء. . يبشرون بالثورة الكبرى على أساس من كتاب الله العزيز، وهدى من أصالة قيمنا ومبادئنا، في سبيل تجديد حياة المجتمع وتغيير الفاسد وترسيخ الصالح. لا يتخلى أحد عن مكانه، ولا ينغزل رائد ينتظر منه الخير، ولا يتخوف إنسان من إبداء رأى والإشارة إلى انحراف والتنبيه إلى مواقع الطحالب والرواسب والمعوقات في طريق التيار المتدفق من أجل الخير والنماء.

## العدد . . والعدة

واحد . . اثنان . . عشرة . . عشرون . . مائة مليون .  
فلتتوال الأرقام اللامتناهية إلى أبد الآبدين، فإنك  
مستطيع أن تقضى حياتك كلها تكدّسها بعضها فوق  
بعض بأصابعك أو مسبحتك أو بالعقل الآلى دون غاية  
تبلغها. وتقضى ملايين الحيات دون أن تصل إلى نهاية  
لها . . فإنها تمضى إلى ما شاء الله .

إنَّ الكم - على هذا الأساس - غير متناه . وهو قد يكون  
كماً مهملاً لا قيمة له . أمّا ذو القيمة المحدّدة فهو ما يعرف  
بالكيف . أعنى ماهية الشىء . . كيفيته . . ما هو . هذا هو  
الأمر المهم، وهو الذى تبنى عليه القيم والمفهومات وترسّخ  
المبادئ والنظم، ما كان منها فى المجتمع أو الاقتصاد أو  
السياسة أو الفكر على وجه العموم . .

في الفلسفة، كما في علم الاجتماع وفي الدين، يهتم الداعية بالكيف باعتباره قيمة يمكنه بها أن يجدد مجال دعوته. ولا ينظر إلى الكم إلا باعتباره تكملاً. أعنى تعدد النسخ التي قد تخصى بالآلاف أو تعدد بالملايين أو تتجاوزها بكثير. لكن الكيف يظل هو الأصل وهو مركز الدائرة وبؤرة الاهتمام. ومن هنا كانت الدعوات الكبرى منبثقة عن نوعيات خاصة لا تتأثر بالعدد بقدر ما تتأثر بالنمط أو الأنموذج.

فما الذي نريد أن نصل إليه من هذه المقدمة؟ الذي نبغيه أن نبين خطأ المفهوم الجارى على الألسنة والدائر في العقول من أن الشعب الليبي شعب قليل العدد، ولذا فهو ليس بمستطيع أن يقوم بما وطد العزم عليه، ويحقق الآمال العظيمة في قيادة الثورة الكبرى، وضرب المثل لشعوب المنطقة في الانطلاق بعد تحقيق الانعتاق.

ومقولة مثل هذه لها خطرها الكبير في تشييط الهمم، ونشر الدعاوى المضادة لطبيعة التقدم والتغيير إلى الأفضل. ولا يقتصر تأثيرها على الفرد، بل هي تتجاوزه

إلى المجتمع لتنتشر كالطاعون تضرب دون رحمة هنا وهناك، فلا تبقى ولا تذر.

هل صحيح أننا شعب قليل العدد؟

إننى - أولاً - لأشك كل الشك في صحة الرقم الذى يردّد دائماً: مليونان؟ ولا ريب لدى فى عدم دقّة التعداد - بتعبير مخفّف جداً - لأسباب يعرفها الراسخون فى العلم.

ثم ماذا بهم، ثانياً، لو كان هذا هو الرقم الصحيح؟

ألا يستطيع مليونان من البشر أن يفعلوا شيئاً؟ بلى. إنهم لقادرون. ولننظر فى التاريخ:

● إن سكان أثينا - مثلاً - فى قمّة مجدها، بكل فلاسفتها وشعرائها وفنّانيتها وقادتها وساستها، بكل تراثها الزاخر، لم يتجاوز عددهم ثلاثين ألفاً من البشر.

● وكم بلغ جند الإسلام من العرب حين خرجوا من جزيرتهم يحطمون امبراطوريتى فارس والروم ويكتسحون شمال إفريقيا ويفتحون الدنيا القديمة . . من المحيط حتى جبال سرنديب؟ بضعة آلاف . . لا يزيدون.

ولننظر إلى الواقع:

● سگان السويد - أرقى بلد أوروبى معاصر - لا يتجاوزون خمسة ملايين . وقس على هذا النرويج وغيرها من دول شمال أوروبا .

● فى استراليا ، القارة العظيمة المترامية الأطراف بكل معانى القارة العظيمة ، قد لا يزيد عدد أهلها عن خمسة عشر مليوناً .

ولماذا نمضى إلى بعيد؟

● كم عدد اليهود محتلي فلسطين . . أولئك الذين جمعوا من آفاق الأرض ، وحشدوا لمصارعة المائة مليون؟ . .

ثم . . هل صحيح أن العدد ذو أهمية فى نفع أو ضرر؟

لو كان الأمر كذلك لما احتل ، وحكم ، بضعة آلاف من جنود الإنجليز شبه جزيرة الهند ، وهى مئات الملايين ، مئات من السنين . وهيمنت السياسة الاستعمارية على مصائر شعب الصين - ياجوج وماجوج .

ولو كان الأمر كذلك لما سيطرت هولندا - فى أقصى شمال الأرض - على مجموعة جزر أندونيسيا وأهلها كالنمل عدداً ، وأهل هولندا يستولى كل واحد منهم على جزيرة

يحكمها كيف يشاء.

ولو مضيّنا نضرب الأمثال لما وسعنا المجال شرحاً  
وتفصيلاً.

فهو الكيف إذن . . أعنى النوعية - بالتعبير الحديث .

ومع الكيف: العدة. وقد منحنا الله أرضاً واسعة ملاء  
جنوبها بالمعادن، ومهد شمالها للحرث والزرع، ومدّ  
ساحلها إلى حيث يرتدُّ الطرف، وصبّ في أعماقها الذهب  
الأسود صباً، ونوع مناخها، وطيب هواءها، ووضع فيها  
كل الخيرات.

ونحن مجتمع متناسق متآلف، صيغ من جبلة واحدة  
قطعة واحدة، لا تنافر فيها ولا اختلاف. تربطه أواصر  
القربى، وتجمعه علاقات النسب والأصل واللغة والدين  
والطبائع والعادات.

ونحن من إفريقيا في القلب . . تتصل حدودنا بها،  
وتتمزج دماؤنا ودماؤها. وفي الوطن العربي حلقة وصل بين  
جناحي المشرق والمغرب. ونقرب من أوروبا حتى لنراها  
من شواطئنا كل صباح.

نحن هنا نملك قوة الاقتصاد، ونسيطر على مواردنا، ونسخرها كيف نشاء. ونحن نبني بالمال قوة العلم، ونزداد كل يوم معرفة بخبايا التقنية الحديثة، ونستخدمها في حياتنا العامة والخاصة. نرتبط بماضينا وبشريعة الكتاب العزيز، ونستمسك بأصالتنا وتضرب جذورنا في الأعماق، ونتطلع إلى آفاق العلم الحديث الرحبة نأخذ بأسبابه دون رهبة ولا تحوُّف. لسنا منغلقيين ولا مترمِّتين، كما أننا غير متصلين من تراثنا ولا متبرئين. فماذا يمكن أن يقال؟

مليونان! ..

فليكن ..

لكنهم ليسوا طحالب نمت حول آبار النفط - كما قالت الأقلام الكاذبة. وليسوا حشداً من الرعاة الرحل كما قالت الأفواه المتغرِّبة ذات يوم.

على هذه الأرض اللبية درجت الإنسانية أول ما درجت. ونظرة واحدة إلى آثار فزان وما انتصب شمال هذه الأرض في القديم تحرس الألسنة.

وإسهام علمائنا وشيوخنا بعد الفتح في علوم الإسلام



الكريمة واللغة العربية الشريفة لا ينكره إلا جاحد . وهو إن طمر بفعل عوامل كثيرة فسوف يظهر ليقول : ها أنذا . .

أما الموت في سبيل الله والوطن والعروبة فإنه لا يحتاج إلى تدليل وتوضيح . ألا يكفي ثلاثة الأرباع مليون على مدى عشرين عاماً من الزمان؟ هل نتحدّث عن الأساطيل الليلية التي أرغمت أمريكا على الانحناء، وأجبرت أوروبا على دفع الجزية كل عام؟ هل نتحدّث عن قوافل شهدائنا في فلسطين في الأربعينات وبعده الأربعينات؟ هل نورد ذكر معركة الجزائر العظيمة .؟

ومن هذه الأرض حكم الملوك روما، واعتلوا عرش الفراعين وأتوا بالمعجزات .

ومنها كان أول اتصال بأوروبا بعد نهضتها، على مستوى الحرب والسياسة والفكر والعلم والثقافة

وهي الآن تبنى من أجل المستقبل . تبنى العدة : في مدارسها، وجامعاتها، ومصانعها، ومزارعها، وقوتها العسكرية الضاربة المدافعة .

مليونان!!!

فليكن ..  
لكنهم مليونان مسلحون بالعزيمة والإيمان، والمعرفة  
والعلم ..  
هم - كيفاً - مائة مليون .. وأكثر قليلاً! ..

# فاضع ما سئت

ما الفرق بين التأثر والسرقة في العمل الفكرى أو الأدبى؟

إنه خيط رقيق جداً لا يكاد يرى. غير أن هذا الخيط - مهما بلغت دقته - هو الذى يحدّد الفرق بوضوح كامل بين الأمرين.

فالتأثر - فيما نرى - هو أن يُغمر الكاتب بفكر فردٍ ما، أو جماعة ما، حتى يصير هو المعبر عنها من خلال عمله بشرط أن يختلف أسلوب التعبير حتى تبرز شخصية الكاتب ذاته، وإن بدأ متأثراً بفكر آخر. وهذه مسألة طبيعية لا غبار عليها، بل لا مناص منها، فما دام الكاتب قرأ لسواه فهو لا ريب يتأثر بما يقرأ ولا يمكنه الخلاص بحال من الأحوال مهما بذل من جهد.

أما السرقة فهي تكون بطريقتين: أحدهما أن ينقل نتاج غيره نقلاً حرفياً - سواء كان هذا النتاج في لغته الأصلية أو لغة أجنبية عنه. . والآخر أن ينقل الفكرة ذاتها محاولاً أن يضفي عليها بعض التغيير والتحوير لكي تبدو كأنما هي من بنات أفكاره ومن نتاجه هو دون أن يشير إلى المصدر الذي استقى منه موهماً القارئ بأن ما يقرأ جاء نتيجة جهده الفردي وبحثه الخاص وتأمّله الذاق، وإنَّ الفضل يعود إليه وحده في هذا الإبداع.

ذُكرني بهذا الأمر اسمان يتردّدان كثيراً على الأفواه وفي الأسماع، وهما من القراء العدد الأوفر في عالمنا العربي - رغم كل شيء - أمّا أولهما فهو أنيس منصور، وأمّا ثانيهما فهو مصطفى محمود.

وللأول شهرته الكبيرة، وأشهر ما عرف عنه غرامه بعجائب الدنيا وغرائبها. وقد اهتمَّ كل الاهتمام بأن يتحف قارئه بما رأى في أثناء سياحاته من هذه العجائب والغرائب، جمعها في رحلات تذكّرنا بكتب الأوائل ورحلات سندباد. بدءاً من جبل سرنديب وانتهاءً بقلعة الدالاي لاما، ومروراً بجزر الأشجار التي تنبت نساء تغني لعابري السبيل! .

وأنيس منصور- في الحق- كاتب ظريف طريف لطيف، يمكنه أن يأخذ بيد- أو بعين- أي قارئ عصي ويقوده إلى حيث يريد دون كبير عناء. وهو في هذا موقف كل التوفيق.. لا جدال. فمن ذا الذي يقاوم الاطلاع على ما يحكيه هذا القاص الماهر من مدهشات تأخذ بالألباب؟ أو من ذا الذي يستطيع كبح جماح فضوله لمعرفة أسرار العاشقين والعاشقات وطرق الحب المختلفة ودنيا الغرام الملتهبة بالعواطف والأحاسيس؟ أمّا الشعب والأمة، والسياسة ومصاعبها، وقضايا الجماهير المتعبة المنهكة.. فتلك مسائل هو برىء منها كل البراءة.

لكن ما العمل عندما لا يجد أنيس منصور شيئاً يبهر به قراءه؟ كيف يمكنه أن يجذب هؤلاء القراء إليه ويشدّهم بالمخدر اللطيف؟

هنا نرجع إلى موضوعنا. وهنا نجد صاحبنا أمهر ما يكون أيضاً. فقد وقع بيدي منذ مدة كتاب له عنوانه (الذين هبطوا من السماء). وهو عنوان مغرٍ كما ترى، وفيه يقصُّ الكاتب حكايا تبلغ الغاية في الغرابة عن أصل الإنسان في هذه الأرض- وخلاصته أن هذا الكوكب ليس

سوى حقل تجارب لكائنات أخرى جاءت من الكواكب البعيدة لتنشئ حضارة جديدة، فتبنى الأهرام وتترك آثارها في الهند والصين والمكسيك وجزيرة أطلتس أيضاً. ولسنا هنا في سبيل مناقشة الفكرة ذاتها ورفضها أو قبولها، ولكننا نبحث في أصل الفكرة ومنبعها.

ونحن قد نقبل النظرية، وقد نرفضها. لكن ما لا نقبله أن يسطو الأخ أنيس منصور سطواً على عمل كاتب آخر، وينقله حرفاً بحرف، بل حتى الصور المثبتة في الكتاب بعينها، ثم ينسب هذا كله إلى نفسه.. دون حياء ولا خجل!

إنّ نظرية مثل هذه التي ذكرت بدأت تخرج في الآونة الأخيرة في البلاد الأمريكية والأوروبية من عالم الخيال العلمى (Science Fiction) إلى حيز النظريات العلمية. وكثير من العلماء والباحثين مهتم بها كل الاهتمام. وما إن قرأت (الذين هبطوا من السماء) حتى فوجئت بأننى قرأت هذا الكلام من قبل.. في لغة أخرى! ثم تذكرت المؤلف السويسري الأصل «أريك فون دنكن» وكتابه المعروف (عربات الآلهة) وعدت إليه أتصفّحه من جديد، فإذا

الحديث هو الحديث، والفكرة هي الفكرة مع بعض (التحايش) في كتاب أحيانا في الله . . أنيس منصور!

ولقد أَلَّفَ (أريك) هذا مؤلفات أخرى بيعت منها ملايين النسخ عن (العودة إلى الكواكب) و (ذهب الأرباب) ثم (آلهة من الفضاء الخارجي). وهي كلها تدور في نفس النطاق. لكنَّ المؤلف السويسري كان أميناً وجاداً في عمله. فهو قطع ما يزيد عن مئة وثلاثين ألف ميل سفراً للبحث عمَّا يؤيد نظريته ما بين القارات الخمس، وأثبت في نهاية كل مؤلف له قائمة طويلة بالمراجع والمصادر التي استعان بها، ومنها بعض المراجع العربية. أمَّا صاحبنا فلم يكلف نفسه عناء سوى الترجمة عن الألمانية أو الإنجليزية، ثم نشرها في الصحف وجمعها من بعد ذلك في كتاب يحمل اسمه دون ذكر من أخذ عنه ونقل.

إنَّ هذا لا يسمَّى تأثراً . . إنه السرقة بعينها. هكذا . .  
عيني عينك!

فلتترك الأخ أنيس ولنتفت إلى الأخ مصطفى محمود . . الذي لا أدرى من أي جامعة حصل على لقب

(الدكتوراه) ليسبق به اسمه . وهذه قضية أخرى قد  
نعالجها ذات يوم . فماذا يفعل الأخ مصطفى فى برنامج  
المرئى سوى عرض بعض أشرطة مستعارة من التلفزة  
الفرنسية ثم الهتاف: الله!! يا سلام.. شوفوا..  
شوفوا.. الله!! يا سلام.. يا سلام! وهذه أيضاً قضية  
أخرى قد نعالجها ذات يوم كذلك .

منذ سنوات قرّرت لجنة ما فى القاهرة أن تحبى الأخ  
مصطفى محمود وتبويه . فشهدت أن كتابه المسمّى (رجل  
تحت الصفر) عمل إبداعى ممتاز جدير بأن يعطى جائزة  
الدولة التشجيعية . هكذا مرّة واحدة! وإذا كان من  
محاسن أنيس منصور أنه يقرأ ويترجم وينشر، فمن محاسن  
الأخ مصطفى أنه يجب التردّد على دور الخيالة . وهو قطعاً  
شاهد شريطاً بعنوان (الذبابة) أثار ضجة يوم عرض وهو  
يحكى قصة عالم شاب يحاول اختزال الزمن والمسافة - أو  
الزمان والمكان - بجهاز يدخله ثم يضغط زراً يحوِّله إلى  
موجات كهربائية ضوئية تنتقل بها ذرات جسمه إلى جهاز آخر  
فى مكان آخر معدّ لاستقبالها وتحويلها إلى جسم كامل كما كان .  
هذه هى الفكرة ذاتها التى نسج حولها مصطفى محمود



قصته. وهى قصة تدخل فى عالم الخيال العلمى بأضيق الحدود. ثم طبع ونشر.. ونال الجائزة على عمله (الإبداعى) العظيم. فماذا نسمّى ما فعل يا ترى؟ إنها المرّة الأولى - فيما أعلم - التى يكافأ فيها السارق بجائزة تشجّعه على إعادة الكرة مرات ومرات!

هذان مثالان تعمّدت اختيارهما ليس لأهميتهما، وإنما إشارة إلى ظاهرة خطيرة تتمثّل فى استغفال القراء بالسطو على إبداع الآخرين وتقديمه على أساس أنّه عمل خاص يشتهر به صاحبه ويثاب عليه.

والأمر، من بعد هذا، فى العمل الفكرى أمران: إمّا تأثر يعمق أو يخف ويظهر أو يتلاشى حتى لا يكاد يتميّز، وهو حلال بحسب أحكام العقل والمنطق السليم. وإمّا سرقة قد يستحى صاحبها فيحاول إخفاء آثارها بقدر ما يستطيع، وقد لا يستحى فيتباهى بفعلته ولا يحاول إخفاء الأثر معتمداً على جهل القارئ بمصدر ما كتب. وهذا حرام بحسب جميع أسس الفكر والعلم والأدب.

وقد قيل: إن لم تستح فاصنع ما شئت.

هل بعد هذا القول كلام؟!!

## ما الذى حدث ؟

هل اللغة وسيلة أو هى غاية فى حد ذاتها؟  
سؤال قد يصلح موضوع مناظرة بين طلبة إحدى  
المدارس الثانوية يبرز فيه كل فريق حججه ويلقى ببراهينه  
تدريباً لهم فى مجال المحاجة وتمريناً لألستهم كى تنطلق من  
معاقلها. غير أن الإجابة - فى النهاية - هى أن اللغة  
وسيلة . .

اللغة أداة تعبير الإنسان عن ما يجول فى خاطره من مشاعر  
وأحاسيس مهما تباينت . اصطلى عليها الناس حتى يتم الاتصال  
البشرى ويتحقق العمران وهى وسيلة التعبير عن الحياة  
المادية البسيطة أو المعقدة على حد سواء . هكذا بدأت . .  
ثم تطورت لتشمل جوانب غير محسوسة كان الإنسان أقدر  
من غيره من مخلوقات الأرض على الإفصاح عنها برموز

وأصوات أسماها لغة، اختلفت باختلاف الشعوب والأمم وإن ظلت رابطة ما تربطها إشارة إلى وحدة نشأتها الأولى.

هذا يدخل في باب المصلحة البشرية، أو المنافع الإنسانية اليومية. ثم ولجت باباً آخر هو باب المتعة أو الاستمتاع. واللغة هنا أيضاً وسيلة فنحن نستمتع بالشعر يُقرأ ونطرب لفكاهة أو نادرة، ومنتشى بمشهد تمثيلي أو مسرحية، ونصفق لخطيب ممتاز. وقد يكون في هذه الأمور كلها فائدة ملموسة، وقد لا يتميز بعضها بغير جمال اللغة وحسن التعبير طريقاً إلى الإمتاع الذهني المطلوب.

غير أن اختلاف مواطن البشر أدى إلى تباين اللغات، تفرغاً عن أصول كبرى صارت إلى آلاف الألسن واللهجات. وأصبحت هذه الألسن علامات مميزة للشعوب والأمم، وباتت كل أمة معتزةً بلسانها متخذة إياه رمزاً لها، تحفظه من الاعوجاج بعد أن استقام عوده وصلب وتحميه من عاديات الزمن، وتصونه من الانحراف والخلل. وليس ثمة أمة متمدينة في الوجود إلا وهي ترى لغتها أجمل اللغات وتحسب لسانها أقوم الألسن. ومن هنا انبثقت علوم النحو والصرف وما نتج عنها من فنون فرعية غايتها الأولى

والأخيرة تعليم الأجيال الجديدة في الأمة قواعد لغتها  
وأصول نطقها ومرامى ألفاظها ومعانى تعبيراتها.

واللغة العربية هي إحدى كبريات لغات العالم. وهذا  
أمر لا أبينه تعصباً، إذ هو حقيقة مسلّمة لدى الدارسين  
والعلماء في أركان الدنيا الأربعة. كان هذا بحكم تطوُّرها  
منذ أقدم العصور. وتكاملها بعامل انتشار الإسلام وانتشار  
الحضارة العربية فيما بعد. ثمّ كان لارتباطها الأوثق  
بالقرآن، وبفضل الرجال العظماء الذين كرّسوا حياتهم  
لتأصيل قواعدها وضبط مبادئها وترتيب نحوها وصرفها  
وتنظيم اصطلاحها، خوفاً عليها من الفساد وخشية أن  
تلتوى بها الألسنة الجاهلة أو الأشداق الأعجمية.

وقد استمرّ الزمان قروناً متطاولة يضيف لهذه اللغة  
جديداً وتضيف هي إليه. تنمو وتزدهر وتكبر كالشجرة  
الباسقة، فترسل ظلالها الوارفة على ساحات شاسعة من  
رقعة الأرض وتغطى بقاعاً تمتد آلاف الأميال وتتغلّب على  
لغات سابقة وتجعلها نسياً منسياً. ثم توالى عصور الظلمة  
وكان طبيعياً أن تتأثر الشجرة التي افتقدت النور، فتذوى  
أغصانها وتيبس فروعها رغم أنّ الجذور لا تزال ضاربة في

الأعماق تنتظر البعث إلى الحياة من جديد.

ونحن الآن نعيش فترة البعث هذه.. بالرغم من كل شيء. نحن الآن في فترة ما يسميه بعض أساتذتنا «الهبة التراجعية» وهو يعنى الصحوة والالتفات. إدراك الواقع والنظر إلى الماضي للانطلاق في المستقبل. ولغتنا هي الأساس الأوّل الذي نبني عليه صرح مستقبلنا. إذ أنّ اللغة عنوان القومية والاعتزاز بها يحمل معنى الاعتزاز بالوطن والاهتمام بها يظل وسيلة الاهتمام ببناء المواطن الواعي المتيقظ.

فما الذي حدث؟

ما حدث أمر بالغ الخطر رغم أنّ الكثيرين لا يكادون ينتبهون إليه. وهو في ظني مفتاح المسألة برمّتها، وأرى أنّ لا مناص من توضيحه.

كنت أصحح بعض أوراق طلبة إحدى كليّات الجامعة هذا العام. ولست أدري كيف أعبر عن (فجيعتي) حين قرأت ما كتبوا. هل أقول: (الهلع)؟ لعلّه (الرعب) الذي انتابني. أو هو شيء آخر.. مزيج من القلق والصدمة

والدهشة والتعجب. كيف تنحدر لغة طلبة الجامعة إلى هذا الدرك؟ كيف تلتوى القواعد وتنعكس بل تتلاشى وتتناثر حتى لا تكاد تعي جملة واحدة؟ كيف تختلط التعبيرات البديهية الأساسية فلا يدرى صاحبها ما يقول؟ بل كيف اجتاز بعضهم امتحانات الإعدادية والثانوية ووصلوا إلى مراحل متقدمة في دراستهم الجامعية وهم لا يحسنون مبادئ الإملاء فما بالك بقواعد اللغة؟ هل قلت (يحسنون)؟ إنهم لا يعرفونها مجرد المعرفة... كارثة. هكذا كنت أحدث نفسي وأنا أحاول ضبطها حتى لا تؤثر في وضع الدرجة المطلوب وضعها ولا أظلم أحداً. وأعترف أنني حاولت أن أبعد مقياس اللغة في التصحيح، فهم جميعاً يستون. والحق أنهم بذلوا الجهد في الفهم، وبذلوا الجهد في التعبير وقد جاءوا بأفضل ما لديهم. لكن ما لديهم - في باب اللغة - كان أضال من أن يمكنهم من التعبير السليم الصحيح.

وأنا أسمح لنفسي بالحديث عن طلبة الجامعة، وفي كلية تعدّهم لتعليم الأجيال الجديدة بالذات، لأن الجامعة في هذا المجتمع الصغير هي خير مقياس يعتمد عليه الحكم

في هذا المجال . فإذا كانت خلاصة المجتمع بهذا المستوى  
من الجهل اللغوي فإنها في الحق مصيبة . . بل هي أعظم  
المصائب . .

ما السبب يا ترى في هذه المحنة؟

أوه . . هل أعددت لك الأسباب؟ إنك تعرفها بالتأكيد،  
ما دمت مهتمًا بقراءة هذا المقال، ووصلت معي إلى هذا  
الحد!

فلنلق اللوم على كتب القواعد في مراحل التعليم الأولى  
مثلما هي العادة دائمًا . . ومبلغ علمي أن أمانة التعليم  
والتربية مهتمّة أشد الاهتمام بتطوير هذه الكتب ولعل  
النتيجة خير . . إن شاء الله . .

لكن رأيت أن تعلّم الطلاب قواعد اللغة بهذه الطريقة -  
أعني في كتب منفصلة مقرّرة - هو السبب الأكبر في ما  
وصلنا إليه . . مهما طوّرنا وأصلحنا وعدّلنا وبدّلنا . إن  
تقديم قواعد اللغة منفصلة عن بقية الكتب في المواد  
الأخرى جعل الطلاب ينظرون إليها في خوف أدّى إلى

تحاكيها ثم أوصل إلى تجنب ما يمتُّ للقواعد بصلة . . حتى  
صارت القواعد غولاً رهيباً ينفر منه كل أحد وابتعد عن  
طريقه ما استطاع.

هذه واحدة. أمّا الأخرى فهي ما يمكن تسميته باسم  
«الإزدواجية اللغوية» وهي عامّة في البلاد العربية لا تقتصر  
على بلادنا فحسب . . فنحن نتكلّم - في الواقع - لغتين:  
إحدهما في حياتنا اليومية على اختلاف مظاهرها . . وهي ما  
يسمّى بالعامّية أو الدارجة. والأخرى نسمعها في الإذاعة  
ونقرأها في الصحف وننصت إليها في المحاضرات  
والخطب. وهذه مشكلة مستعصية على الحل الآن. لكن لا  
بد لها من حل في المستقبل بأى سبيل.

وماذا عن الحاضر؟

إن كنا جادين في إصلاح ألسنتنا فلا بدّ من خطوات  
سريعة في البداية. أوّلها: إعادة النظر في طرق تدريس  
قواعد اللغة بحيث تصبح شيئاً عادياً يتعلّمه الطالب  
بسهولة ويسر دون خوف منها ولا وجل. وثانيهما: التشديد  
على مدرّسى مختلف المراحل باستعمال اللغة الفصحى في



شرح المواد المقررة حتى يتمثل بهم طلابهم وتستقيم ألسنتهم منذ الصغر. وثالثها: أن لا يقدم في الإذاعة شيء إلا بالفصحى - وبخاصة في البرامج التمثيلية والأحاديث والمقابلات.

ورابعها: أن يوضع في الاعتبار - عند تصحيح أوراق طلبة الجامعة بالذات - نقاء اللغة وسلامة قواعدها، مهما اختلفت كلياتهم. ولست بهذا أكلفهم ما لا طاقة لهم به. فهذه القواعد لا تتجاوز بحال عشرًا يمكن حفظها في يوم واحد وتطبيقها بعد ذلك في كل شيء.

إن جامعة السوربون - مثلاً - تنقص درجة للطلاب عن كل خطأ إملائي أو نحوي في اللغة الفرنسية، أيًا كان العلم الذي يمتحن فيه. وقد يرسب الطالب - لغوياً - رغم صحة إجابته التامة.

هل نستطيع أن نتخذ من السوربون مثلاً؟!

## لم لا تفهم ما يقال ؟

لعلّه أبو تمام ذاك الذى وقف ينشد شعراً فى مجلس الخليفة، وكان مغرباً أشد الإغراب، حتى إذا أكمل إنشاده سأله أحد الحاضرين :

- لم لا تقول ما يفهم يا أبا العرب؟

وكان جواب أبى تمام :

- ولم لا تفهم أنت ما يقال؟

وقد اعتبر بعض النقاد هذا الجواب ردّاً مفحماً للسائل، وحسبه البعض تخلصاً ذكياً من الشاعر. وقد يكون موقف أبى تمام سليماً متمشياً مع الوضع الثقافى العام يومذاك، فلعلّ السائل كان قاصر الفهم حقاً فوجد عسراً فى إدراك مراد الشاعر ومراميه ومتابعة ألفاظه ومعانيه.

غير أن السؤال ذاته ينبغي أن يوجّه اليوم إلى بعض شعرائنا المحدثين:

- «لم لا تقولون ما يفهم؟».

وليس لهم أن يتمحّكوا بجواب أبي تمام، فالحق أن ما «يقولونه» لا يمكن أن يدرك بأية وسيلة من وسائل الإدراك، ولا يستطيع تتبّعه بأية طريقة من طرق التتبّع والتقصى. فلا اللغة واضحة الألفاظ، ولا الجمل جليّة الصلة بعضها بالبعض. . . ولا التركيب بين التناسق. فإن كان «الرمز» هو الذى يقصدون فإن للرمز شروطه وأصوله بحيث يودى غايته ويصل إلى المطلوب منه. أمّا إذا كان «الاستغلاق» هو البغية، رغبة فى أن يقال إن فلاناً صعب الفهم أو بعيد المرمى أو معن فى رمزه، فهذه صفة بالغة السوء حقاً.

إننى أقرأ القصيدة لأحد هؤلاء من بدايتها إلى نهايتها فلا أجد خيطاً واحداً يربطها ولا فكرة واحدة تنظمها، وإنما يعمد صاحبها إلى كلمات متنافرة يفرغها من مدلولاتها حين يجمع ما لا يصح جمعه من الألفاظ، ويظل يردّد كلمات لا صلة بينها يحال من الأحوال. وأعذر الشاعر

طمعاً في فكرة جديدة ناصعة وأملاً في بارقة وحي هبط عليه من السماء، فلا أجد سوى الهبوط وحده دون وحي!

أعجب ما في الأمر أن شعراء الرمز الموهل هؤلاء يدعون أنهم يعبرون عن «قضايا الشعب» وآلامه وآماله - أو هي طموحاته كما يقولون - والأعجب منه أن الشعب لا يعي ما يقولون، إن كان يقرأهم أصلاً. فكيف السبيل إلى الخلاص من هذا العذاب أيها القوم؟

إن التعبير الفني لا يمكن أن يقبل - فما بالك بأن يرسخ ويخلد - إلا إذا كان جميلاً في ذاته. وليس من الجمال في شيء أن يلوى عنق الكلام العربي ويحوّل إلى هذر باسم الرمز والرمزية وأن تلوى معه أعناق القارئ.

هذا هو القرآن - أروع تعبير لغوي عرفته البشرية - وقد شمل قيم الحق والخير والجمال، وضمّ أمور الدنيا والدين. ليس فيه كلمة واحدة مستغلقة. بل هو لسان عربي مبين. والإبانة أهم خصائص العمل الفني، وإلاّ انتهت الغاية منه. فإن كان الغرض مخاطبة الناس - أعني الشعب - فالأفضل أن يبحث شعراؤنا عن وسيلة أخرى غير ما

يفعلون. أمّا إن كان مجرد تعبير عن أزمات نفسية ذاتية  
ومحاولة للتنفيس عن الكبت الموجه، فلم يسمح لهم  
بتعذيب الآخرين معهم؟!!

ألا ما أحكم رسول الله ﷺ حين قال: «خاطبوا الناس  
على قدر عقولهم».

وأحسب أنّ عقول الناس قد «طارت» من سوء ما  
يقرأون!

## لماذا "ابن مقلة" ؟

سعدت جداً بافتتاح معهد للخط العربي في بلادنا. سعدت لا لجمال هذا الفن وارتباطه بحضارتنا فحسب، بل أملاً في جيل يخرج منه يعلم الجيل الجديد كيف تستقيم حروفه حتى يمكن قراءة ما يكتب - إن كتب - بعد أن فاقت طلاس خربشاته أعاجيب خط أستاذنا على مصطفى المصراتي - كان الله في عون ناشري كتبه المساكين!

\* \* \*

غير أني دهشت لاختيار اسم ابن مقلة له. وأعترف بجهلي الفاضح إذ لم أعرف من هو ابن مقلة هذا.. حتى أفادتني - الأسبوع الثقافي - في خبرها عن افتتاح المعهد بأنه كان خطأً ممتازاً، قطعت يده اليمنى فصار يكتب بيده اليسرى. وهذا - في ظني - أمر طبيعي. ولعله ارتكب ما تنقطع به يمينه، مما يدخل في باب آخر، فبم يكتب إذن إلا

بيسراه؟! وقالت الأسبوع الثقافى - باركها الله - إنه كتب خطأ أجمل . ولعله كان أعسر . وقالت : إنه عاش فى القرن الرابع الهجرى .  
جميل .

\* \* \*

فلنقرأ ما كتبه الرحالة عن رجل تعس الحظ عاش فى هذه الطرابلس . . كان اسمه ابن الأجدابى . أبو إسحاق إبراهيم بن اسماعيل بن أحمد بن عبدالله الطرابلسى . قال أحمد بن ناصر الدرعى فى (رحلته) عنه :

«وقبره معظم يكثر الناس من زيارته والدعاء عنده . وكان من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم ، كلاماً وفقهاً ونحواً ولغة وعروضاً ونظماً ونثراً . وله تواليف جليلة وأسئلة مفيدة فى الفقه وفى غيره .

ومن جملة تواليفه كتابه المتداول المسمى (كفاية المتحفظ)، وكتابه فى العروض . وناهيك به حسناً وتهذيباً . . . وكتابه فى الرد على أبى حفص بن مكي فى (تثقيف اللسان) وكتابه فى شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء وبين اعتلال هذه الياء . . وكتابة (المختصر فى علم

الأنساب) وله تأليف مختصر في (الأنواء) على مذهب العرب ورسالته المعروفة برسالة (الأصول) وكان الفقيه أبو اسحاق أحول. وسبب تأليفه أنه حضر يوماً بطرابلس عند القاضي بها أبي محمد بن هانش الطرابلسي فحكم أبو محمد بحكم أخطأ فيه. فردَّ عليه الفقيه أبو إسحاق. فقال له: اسكت يا أحول! فما استدعيت ولا استفتيت. فألف تلك الرسالة!»!

\* \* \*

ويضيف ابن ناصر: «وكان - رحمه الله - من أحسن الناس خطأً. وأخبرت أن الأمير زكريا، رحمه الله، كان شديد البحث عن خطئه. وسمع أن كتاب (الفصيح) بيع بخطه بطرابلس فأبرد بريداً في البحث عنه ووجَّه به إليه. وإنه سمع أن بها كتاب (أمثلة الغريب) لأبي الحسن الهنائي بخط الفقيه أبي إسحاق في ملك بعض بني النقاد من أعيان طرابلس، فوجَّه إليه فيها فوجَّه النقادى بها إليه. وملكت بخطه تأليفه الذي اختصر فيه كتاب (أنساب قریش).. وأخبرني بعض الطلبة أن خط أبي اسحاق باقٍ إلى الآن في بعض جدران داره بطرابلس».



هذا شيء قليل جداً مما كتب عن ابن الأجدابي . ولا  
يهمنا هنا سوى ما ورد عن تفرده بخطه الجميل الذي يتتبع  
في البلاد ويرسم على الجدران .

\* \* \*

فإن قيل إن ابن مقلة عربي ، أفليس ابن الأجدابي عربياً  
أيضاً؟ .

أم أن ذنبه أنه جاء من أجدابيا ، وعاش في طرابلس -  
ولم يخرج منها قط وإنما تلقى العلم كما كان يقول : من بابي  
هواره وزناته؟

هذه مصيبة ابن الأجدابي . . ومصيبتنا . ترى لو بعث  
حياً ألا يكتب رسالة في حولنا نحن ، أيها القوم ، يعيب  
علينا نسيانه وهو عند أرنبة الأنف؟! !

## البنسبون

أشهد أنّ في عنقى ديناً لذلك القارىء العزيز الذى أعاد  
لى الثقة بأنّه لا يزال فى هذا البلد قراء. فأثبت بهذا أنّ  
الكتاب هم المعرّضون للانقراض أولاً ثم يتبعهم القراء.  
وكنت أظنّ أنّ القراء أسبق فى الانقراض ثم يتبعهم  
الكتاب، بعد أن (يخربشوا) ما شاء لهم الله وتحملت  
أعصابهم ومكّنتهم من الصياح فى الوديان والنفخ فى  
الرماد!

فبارك الله فيه وأكثر من أمثاله.. . إنه هو السميع

المجيب!

وماذا؟ إنه لم يكتف بقراءة ما كتبت يوماً فى هذا الباب  
عن ظلم ذوى القربى لابن الأجدابى اللواتى الطرابلسى،  
بل شمّر عن ساعد الجد ونقّب وبحث ودرس وفحص حتى

عثر في أسفار القدماء عن نبذة وافية تترجم لابن مقلة  
المفضال وتجلو الصداً عن حياته وأعماله وفنه وإبداعه .

ثم ماذا؟ لقد أخذته الحماسة لابن مقلة الغالى فبعث  
إلى (الأسبوع الثقافي) محتجاً على احتجاجي مورداً ما  
يناسب المقام من درر الشعر العربي من قبل:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته  
والذنب للطرف لا للنجم في الصغر

فلنقم بواجب الشكر للقارئ العزيز مصطفى عمران  
رابعة لإعادة الثقة أولاً، واهتمامه ثانياً، وغيرته ثالثاً، ولما  
أمدنا به من علم جهلناه عن ابن مقلة هذا رابعاً . ثم  
نقول:

والله ما كانت الأبصار قاصرة  
عن رؤية النجم في محلولك السحر  
لكنه البدر قد غطى ببهرته  
وهل يرى النجم في ضوء من القمر؟  
إن كنت لا تدرك المرمى وغايته  
فاسأل جهينة قد يأتيك بالخبر

ليس ابن مقلة إن قيست محاسنه  
بابن الجدابي إلاَّ الرمل في الدرر  
فابن الجدابي قد ذاعت مفاخره  
في البر والبحر، بين البدو والحضر  
إن كان في نعته (جذب) فإنَّ له  
من علمه (الجذب) غطَّى سالف العصر  
هو اللواتي.. كم غنى الزمان به  
وكم حدا العيس والركبان في سفر  
كم ردَّدت ذكره أمس طرابلس  
وكم روى القوم عنه طيب الأثر  
يكفيه يكفيه ما أبقت أنامله  
على الرقائق أو خطَّت على الجدر  
يكفيه ما أبقى الزمان له  
مخلَّد الذكر يرضى كل ذي نظر  
(زامر الحى) لا تجدى أصابعه  
أن يستثير من الأسماع ذا وطر  
ما بالنا اليوم ننسى كل مكرمة  
لصق الجدار وغمضى خافضى البصر

كأننا لا نرى إلا بأقنية  
أعجوبة الدهر - تعبيراً لمعتبر  
كأننا النخلة العوجاء باسقة  
وخارج الدار تلقى جيد الثمر  
غر (مرّ سحاب) عابر، ولقد  
يهي السحاب فيمسي هاطل المطر  
أليس في القوم من تذكو حماسته  
فيشعل النار من لمحة الشرر؟  
وينصف الميت من حي يشابهه  
قد عيل صبرى . . وإني غير مصطبر!

إنّ المسألة - أيها القارئ العزيز - لا تكمن في الخلاف  
حول من الأحق بإطلاق اسمه على معهد الخط الذي  
أنشئ: أهو ابن الأجدابي أم ابن مقلّة؟ إنها تكمن -  
ببساطة - في كيف نخلّد أبناء هذا البلد ونحفظ ذكراهم  
للأجيال ونعرفها أنّها ليست (مقطوعة من شجرة). كيف  
ينشأ ابني وابنك غير شاعرين بالنقص من هذه الصحراء  
المجدبة كما هو التصوّر المعروف المتوارث المغروس في  
الأذهان.

هنا يبدأ الحديث، وهنا ندرك الأبعاد الحقيقية للسنة الحميدة في إطلاق أسماء العلماء والمجاهدين والمجدِّين والمبدعين والشعراء والكتّاب والفقهاء - من أبناء هذا البلد ومن سواه - على المعاهد والمدارس ومربع الثقافة والمنتديات ومراكز المعرفة والفكر، حتى لا تندثر ذكراهم وتنسى أسماؤهم ويجهل جهادهم و(بلاؤهم) في أى سبيل .

لكننا في بلد - ونحمد الله - يجد فيها كل امرئ تقديره واحترامه وتبجيله وإكباره، حيّاً أو ميتاً، إلّا أبناءؤه، رغم أنّ الأقربين أولى بالمعروف . ونحن نجد الشعوب الأخرى تجدّ في البحث عن تراثها وتشغل الأذهان بحوادث وأحداث لا ترقى بحال إلى ما يزرخ به تاريخ هذا البلد، ثم نتهاون نحن في تاريخنا وتناسى شخصيات ماضينا وحاضرنا ونتعلّق بالأذيال . . كأننا الأيتام على مائدة اللثام . . فإن قال أحد كلمة حق توجّهت إليه أصابع الاتهام وتشنّجت الأيدي تتهياً لخنقه والإجهاز عليه .

انظر إلى الشوارع مثلاً: من هو (برهان الدين) و (الأموى) ولست أدري من من الأسماء المجهولة إلّا أن يتطوّع قارئ عزيز بمراجعة (وفيات الأعيان) و (فوات

الوفيات) ليقدم لنا (فذلكة) تاريخية عن هذا الاسم أو ذلك. . ورغم هذا نجدها على لوحات الشوارع والميادين والمعاهد لامة مشعة بينما يتوارى مثلاً اسم عبد الرحمن التاجورى - عالم الفلك والهيئة المجدّ الذى لم يسمع به أساتذة وطلاب كلية الهندسة فيما يبدو ولم يسمّ مدرّج باسمه.

أين عبد السلام بن عبد الغالب المصراتى - ذلك الفقيه الجليل الذى أخذ الخليل بن اسحاق عنه ونقل من (وجيزه) فصار أشهر منه؟

ماذا عن عبدالله الخروبي - العالم المتصوّف سفير ليبيا يوماً من الأيام بين الجزائر والمغرب لفضّ النزاع والخلاف حتى مات فى سفارته تلك، وهو يحاور العلماء والسياسيين على حد سواء، ودفن بالجزائر؟

وماذا عن زروق وتلاميذه وأتباعه ممن يعدّون بالعشرات من هذا الوطن وخارجه؟

ألا يستحق نظرة من أهل النظر؟

وأين ذكر أبى القاسم الرّمّاح - الشارح الصوفى والمؤلف

العسكري بما كتب في فن السلاح واستعمال السيف والرمح وأدوات الحرب الأخرى في أيامه؟ وابن أبي الدنيا الذى ملأ الدنيا علماً وحكمة وعظمت، وابن مطروح العالم الأديب شيخ طرابلس وواليتها المحارب الصلب والمفاوض الماهر، الذى انتهى به المطاف ليقضى أيامه الأخيرة غير بعيد من الإسكندرية فسميت مدينة كاملة باسمه - هى مرسى مطروح - وضمن أهل عليه بلوحة فى زقاق؟

وبعض الناس يجعل من رفاة رافع الطهطاوى أوّل مثقّف اتصل بالحضارة الغربية وعاشها، وألّفت فى هذا المجلدات وكتبت الرسائل، وكان يعيش بين ظهرانينا رجل تعس آخر يدعى حسونة الدغيس هو - باعتراف الدارسين - السابق الاتصال سياسة وثقافة وترجمة ونقلًا . . غير أنّ (طياح سعده) جعله من أهل طرابلس ولم يجعله حظّه من سواها.

وأظنّ دهرًا أتلو عليك الأسماء وأنقل عن المصادر وأعرّف بمن أذكر. وكلها أسماء كريمة لرجال كرام يشرفّ أى معهد أن يطلق أحدها عليه. لكن (أهل الذكر) عن ذكرهم صامتون كأنّ هذه الأرض عقت فنضطر للبحث



عن أمثال (ابن مقالة) و (ابن بلغة) و (ابن شلاكة) في  
بطون الأسفار، ليشبَّ النشء خجلاً يتوارى حياءً من  
وطنه.. هذه الصحراء!

ذلك كله ينصرف إلى الماضي. أمّا عن الحاضر فإنَّ  
القلب، وحقُّ الله، ليذمى.. ينحت أحدهم الصخر  
بأهدابه ويقدم كل ما عنده، ويفوق سواه عطاء.. ثم لا  
يجد مجرد الكلمة الطيبة من ذويه، ويبرز الكاتب أو الشاعر  
أو القاص وفي روحه ومضات تعد بالخير الكثير.. فلا  
يلقى سوى البسمة الساخرة أو النظرة الهازئة.. فينطوى  
على نفسه ويضع رأسه الحزين تحت جناحه الكسير، ثمَّ  
يمضى يبحث عن لقمة العيش له ولعياله، ويتحوّل إلى  
ورّاق يجلب كتب الآخرين لبيعهها قومه المنكرين لجهاده  
الجاحدين لفضله، أو يفتتح مطعماً يقدم الشطائر والدجاج  
المشوى للكروش المنبججة والأفواه النهمة بعد أن كان يقدم  
للعقول الأفكار وللقلوب المودّة والحب. فإن هبط البلد  
دعوى، أو جاءها شعورور، أو أتاه أفاق لا يملك من الثقافة  
والفكر شيئاً، وليس من صفاته إلاّ صفاقة الوجه وقوة الحنجرة  
وألفاظ منمّقة وشعارات على الشفتين، كان الطبل له

والمزمار. وتصدّر الموائد والمجالس ينظر إلى المنسيين من عل ،  
ويخاطب القوم بحساب ، ويأخذ ما شاء أن يأخذ ولا يعطى  
شيئاً ، وهو يتسامق بعنقه كأنّ ليس على هذه البسيطة إلاه .

هذا كله - والله المنة على كل حال - لأننا نتمتع بخصلة  
جليلة راسخة في أعماقنا ، تسيطر على سلوكنا وأقوالنا .  
نحن - والشكر لله من قبل ومن بعد - نتمتع دون سوانا  
بانكار عجيب للذات . وهى صفة حميدة إن كانت بمقدار  
لا يلحق حيفاً بنا وبأبنائنا تقترن بالتواضع الجميل فى  
الوقت المناسب وبالقدر المعقول . أمّا أن تتحوّل إلى (إماتة  
للذات) فإنها تصبح مرضاً خطيراً يصيب الأفراد كما يحيق  
بالجماعات ، ويودى فى النهاية بالجميع . هو مرض يعالج  
بشئ يسمى (حقن الثقة) وبأنّ لنفسك عليك حقاً  
ولأهلك عليك حقاً .

أمّا إذا استفحل الداء وعضل ، فويل لموتى الذوات من  
المنسيين ، وويل للمنسيين من موتى الذوات !!

# والقياس مع الفارق !

كنت أسمع من قبل تعبير (الفردوس المفقود) حين يأتي حديث الأندلس فلا أعيه ولا أفهم معناه حتى إذا كنت في غرناطة علمت أي فردوس مفقود هو في الحق .

ذلك الصرح الشامخ الجميل الرفيع الجمال . . قصر الحمراء ردهاته، شرفاته، دهاليزه، قاعاته، ممرّاته، أسقفه وجدرانه بل وأرضيته . . قطع تفنن الصانع فأبدع . لا تملُّ العين من النظر إليها ولا تشبع من التملُّ في تلك النقوش والزخارف، ظلّت تقاوم الفناء وتصمد في وجه الزمان لتدلّ على مجد العرب والمسلمين العظام .

ثم . . جنّة العريف، سحر الطبيعة وإبداع الإنسان اجتماعاً ليخلقاً أروع ما ترى وأزهى ما تبصر، الجداول الرقراقة بالماء الصافي البارد العذب، والنافورات تكبر

وتصغر. تنشق.. ترش الرذاذ فترطب الجو وتروى  
الظمان. والأشجار السامقة المتطاولة تلتف حول سوقها  
نباتات مزهرة اختلفت ألوانها وتباينت أزاهيرها وورودها،  
ونسقت تنسيقاً عجيباً. ولا تسمع فيها.. إلا «سلاماً  
سلاماً» وأغاريد العصافير وأناشيد الطيور ترفُّ بأجنحتها  
من حولك كأنها مراوح الملائكة ترحب بك وتغني لك أنت  
وحدك.

وتصعد القسبة.. القلعة الحارسة، ذهب جنودها  
ومضوا وبقيت هي أعلى بناء في غرناطة كلُّها يشمخ برجها  
خالياً من ديدبانه، وتمضى في طرقاتها بين صفوف الزهر  
وقد غطت جدرانها النباتات المتسلقة وشجيرات اللبلاب  
والسائحون والسائحات عشرات الآلاف يتمتعون بالماضى  
ويتمتعون بالحاضر.

«لا رحمك الله يا ابن الأحمر!» قلتها وأنا أفف في شرفة  
قصره التي وقف فيها باكياً وهو يستعدُّ للرحيل عن غرناطة  
بعد أن دخلها جند الإسبان وأمه تقول له:  
ابك مثل النساء ملكاً عزيزاً.  
لم تحافظ عليه مثل الرجال!

ومضى الزمان. طرد الإسبان العرب من الأندلس، وقتلوا. واضطهدوا وأحرقوا - في غمرة الحمية الدينية المتعصبة - كل ما استطاعوا من آثار العرب وكتبهم وعلمهم وفنهم. غير أن الكثير بقي وظلَّ. حتى إذا همد التعصب وراحت الفورة استرجع الفرنجة عقلهم الطائش وندموا على ما فعلوا وحاولوا إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وهم الآن يبذلون الجهد في المحافظة على تراث العرب، بل ويتفننون في إظهاره بالمظهر اللائق به - حباً له كتراث إنساني رفيع، واستفادة منه في السياحة الزاهرة في تلك البلاد.

قارنت في ذهني بين وبين.. وزفرت زفرة أشدَّ حرارة من هب أغسطس هذا الذي نحن فيه..

# العالم والعمل

وأعود.. فأسمع الدعوة على مستوى دولى إلى استعادة آثارنا المنهوبة واسترجاع مخطوطاتنا وتراثنا فى متاحف العالم ومكتباته. وهى دعوة حميدة وجب أن تلقى التأييد والمساندة على المستوى المحلى والعربى، بل يجب أن تكون شغلنا الشاغل فى الأعوام القادمة.

والذين حظيوا بحضور مهرجان العالم الإسلامى الذى أقيم فى لندن منذ أربعة أشهر ورأوا ما عرض فيه أصيبوا بالدهشة.. نعم الدهشة.. للكنوز المخبوءة التى ما كانوا يعرفون أن العرب ملكوها ذات يوم، ولو علموا أن ما عرض هو بعض البعض لصعقوا انبهاراً واستغراباً. أمّا الذين أتاحت لهم فرصة زيارة هذه المتاحف والمكتبات فقد توفى بعضهم كمدا ومنهم من ينتظر..

والحديث في هذا الباب طويل ويمكن تلخيصه في القول بأنَّ (العلم والعمل قرينان) وعلم لا يتبعه عمل ليس بنافع - كما كان يقول زروق رحمه الله .

ومن العلم أنَّ متحف برلين وحده يضم من الآثار والمؤلفات ما يفوق محتويات مكتبات الوطن العربي مجتمعة، وإنَّ فهرس مخطوطاته العربية وحدها يبلغ تسعة مجلِّدات ضخمة .

ومن الحق أنَّ الفرنجة - والمستشرقين بصفة خاصة - نظروا إلى التراث العربي والإسلامي باحترام وتقدير، وحافظوا عليه وحفظوه، وتجمَّعوا الكثير من العناء وبذلوا الكثير من المال في هذا السبيل . ونحن لا نناقش الدوافع هنا والأسباب، بل نعني بالنتائج، فوجب تقديرهم لهذا الصنيع وشكرهم عليه، ثم طلب إعادة الأمانة إلى أهلها .

ومن العلم والحق أنَّ العرب كانوا السابقين للفضل، إذ حفظوا للأوروبيين تراث أجدادهم اليونان ونقلوه إليهم وسلَّموهم إياه عن طريق الأندلس وغير الأندلس، وديعة إنسانية كالشعلة المضيئة تنتقل من يد إلى يد على مسار

البشرية المديد فليس على الغرب إلا أن يرد الجميل .  
ومن العمل عقدُ اتفاقيات بيننا وبين الدول المعنية  
خاصة بهذا الأمر، إمّا ثنائية أو جماعية، أو عن طريق منظمات  
الأمم المتحدة المتخصصة، تنص بنودها على تسهيل مهمّة  
التصوير أو الاسترجاع وتيسير الاطلاع على محتويات  
المكتبات الكبيرة الكثيرة ونقلها إلى موطنها بالصورة المناسبة .  
ومن العمل رصد مبلغ واضح محدّد لهذه الغاية ينفق في  
سبيلها دون غيرها . يعين دفعة واحدة ويقال : هذا لهذا . .  
وكفى !

ثم يأتي من بعد ذلك : المبنى المناسب، والرجال ذوو  
القدرة والدراية والمعرفة والكفاءة، والمدربون لهذا الغرض  
النبيل .

ومئة ألف مرة قيل : لا يمكن بناء الإنسان العربي دون  
إعادته إلى أصوله الأولى . وهو لم يعرف هذه الأصول .  
أليس هذا من أبسط «الأصول»؟! !



# تحريك الجلاسد!

تجربتان في مناسبتين مختلفتين مرتّابيّ، تفصل بينهما عشر من السنوات، لكن مغزاهما واحد والنتيجة فيهما واحدة على كل حال.

كانت الأولى في مدرّج رفيق بكلية الآداب في بنغازى. يومها زارت الكلية فرقة من شباب جامعة كولومبيا - فيما أذكر - كانت تطوف أرجاء الأرض وتعزف ألحاناً من الموسيقى الراقصة الجديدة. أعلن عن موعد الحفل الذى ستصده فيه الأنغام، وغصّ المدرّج الكبير بشباب (الآداب) وشاباتهما حتى فاض ووقف الكثيرون فى الممرات ينصتون. أخذ أعضاء الفرقة مواقعهم واتّخذ السامعون مجالسهم، وأعطيت الإشارة. رنّت الآلات الوترية وعلت دقات النحاس، وارتجبت القاعة، ومضت الفرقة تعزف وتعزف، وتنوّع من ألحانها وتغيّر وتبدّل، ثم تتوقف فيعلو

التصفيق، وتعود فيعود الصمت.. وكان القوم على رؤوسهم الطير!

ساعتان من الزمان والآلات الموسيقية تتناجى وتتناغى، وتهدأ وتصبح. ثم.. انتهى العزف وتعالى التصفيق، وخرج الجمع.. وكان الله يبقى الله!

حول أقداح الشاي جرى حديث مع رئيس الفرقة، وكان يقطر عرقاً من أثر الجهد الذي بذل. تبودلت كلمات المجاملة والثناء والتقدير، وكانت عيناه حائرتين وهو يقول:  
- لأول مرة منذ بدأنا التطواف بفرقتنا هذه أحسُّ بمرارة  
ال فشل.

- الفشل؟ سبحان الله! لقد كان نجاحكم ساحقاً  
ماحقاً. كيف تقول هذا يا رجل؟

- أقوله لأنني لم أشعر بالتجاوب المفروض. لم يقفز أحد  
ليرقص. لم يتحرك أحد. كان الهدوء مخيماً تماماً. في جولتنا  
كانت الجموع تهتز منذ الضربة الأولى. تغمرها النشوة..  
تتشنج. ترقص. تغنى. تهدر كالشلال. يا إلهي! يبدو أن  
موسيقانا فاشلة فعلاً!.

وكانت التجربة الثانية هذا الأسبوع. فرقة غينيا الراقصة تدق طبولها الإفريقية على (مسرح الكشاف). ينضح العرق من أجساد الراقصين والراقصات، والمسرح يهتز ويتميل تكاد تتحرك جدرانها لتشارك الفرقة طربها وفنّها، واللوحات تتوالى في قصص شعبية ورمزية تكاد تنطق رغم اختلاف اللسان.

ثلاث ساعات من النقر والطبل والزمر يحرك الصخر الجلمود. وكنت ألاحظ بعض أقدام المشاهدين تساق دقات الموسيقى الملتهبة على استحياء وآخرين لاذوا بلفائف التبغ وبالصمت المطبق الثقيل، إلّا من بعض تصفيق لحركة مبدعة تأتي بها الفرقة بين حين وحين.

ترى ماذا يكون الحال لو قدّمت الفرقة فنّها في مكان آخر؟ لا تسلني.. فالجواب تعرفه أنت كما أعرفه. الجواب أنّ الجمهور المشاهد لم يكن يدع مثل هذه الفرصة الثمينة تفلت من بين يديه ليخفف عن نفسه، ليفرغ شحنات السأم والملل، ليقفز من فوق المقاعد الوثيرة.. يفعل، يصرخ، يطرب، يعبر عن مشاركته الإيجابية.

ولست بهذا أقول إنّنا شعب لا يفعل. كلا.. فالأدلة

على العكس كثيرة. لكننا شعب (يتظاهر) بالوقار. .  
يرتدى ثياب الحشمة. . ويرى في التعبير عن عواطفه عيباً  
كبيراً. نحن نخجل من إظهار مشاعرنا. نكتمها. .  
نضغط على أحاسيسنا ونبرّد لهب حماسنا في ثلّاجة المظهر  
الوقور. حتى إذا فاض الكيل هربنا إلى خارج الحدود،  
حيث نمزق الجيوب ونأق بالعجب العجاب!

نحن شباب لا يغنى. فإذا غنى جاء غناؤه نحيباً وبكاءً  
يقطع نياط القلوب. ونحن رجال يأكلهم الزيف، يقتل في  
نفوسهم الحياة الحلوة الحارة الجميلة. ونساء حكم عليهن  
بالسجن الأبدى والعبودية السرمدية، وكتمت أنفاسهن في  
سراديب البيوت المعتمة حتى لا نسمع صوتاً واحداً منهن  
اللهمّ إلا أن تكون (نجمة) من النجوم!!

هل تريدني أن أتحوّل إلى شيخ واعظ؟

نعم؟ فلتقرأ:

روى أنّ النبي (ص) مرّ بقوم يرقصون ويغنون ويدقّون  
الطبل وينفخون في الزمار، فما غضب ولا أشاح بوجهه،  
ولا نهر، بل قال - عليه السلام:

(ارقصوا يا أولاد الدركلة حتى يعلموا أن في ديننا فسحة)!

ولا ريب أن جهداً خارقاً يجب أن يبذل، على نطاق واسع مدروس، يعلّم الناس أن الله خلق الفنّ من أجل الإنسان وأنّ الإنسان يتعبّد بالفن. وعندما يقول - عزّ وجل - إنه خلق الإنسان في (أحسن) تقويم فإنّما يعنى إبداعه المطلق، فقد كان ممكناً أن يخلقه في (أقبح) تقويم. كان ممكناً أن ينزع من روحه الإحساس بالجمال ويمنعها من الشعور بنشوة الفن. . تلك التي يسميها أفلاطون (رعشة الروح المدركة).

إنّ النفس الزئبقية وحدها - أو هي النفس الصدئة - التي لا تنفعل ولا تتجاوب، تراها تترجرج ناعمة بيضاء من خارج وهي في داخلها سوداء لا يمكن الإمساك بها بين إصبعين.

ولم يكن الصوفية ليجيزوا السماع - أعنى الموسيقى - إلاّ لإدراكهم مدى تأثيره في تصفية النفوس وإزالة ما علق بها من أدران الحياة اليومية وكدها. هم أجازوه حتى يجد المرید فرصة ينفّس فيها عن أشجانه وينغمس في عالم النغم

المجرّد، ويغوص في أعماق اللحن، ويرتفع إلى ملكوت  
التجريد المطلق. ومن هنا كان تسبيح الملائكة منغمّاً ترتجُّ  
له السموات والأرض تمجيداً للخالق الرحمن.  
هل بعدُ بي الحديث عن الموضوع؟  
كلا. فلا نزال فيه.

### الطبول غير الجوفاء

كان رأيي أنّ الطبل في الموسيقى - كبر أو صغر - علامة  
من علامات التخلف. كنت أقول إنّ القطعة الموسيقية لا  
تكون راقية إلاّ حين تخلو من هذه (الدربوكة) المزعجة.  
وحسبت أن لا دور لها ولا غاية سوى ضبط الإيقاع للآذان  
الثقيلة أو الطويلة على حد سواء!.

وكان ذهني منصرفاً إلى الغنائيات الأوروبية و  
(السيمفونيات) المعتمدة على الآلات الوترية الهامسة حتى  
لا تكاد تسمع، فإن كان طبل بها وجب أن لا يتعدّى دوره  
المرسوم المكتوب. وكنت أدعو الله - صباح مساء - أن  
يخلّصنا من (دربوكة) نشاز يخبطها الخابط كيفما اتفق فلا  
تدري أهو (يموسق) أو يستعيد ثأراً قديماً بينه وبينها!

هكذا كنت أرى. حتى كانت ليلة من ليالى رمضان  
الجليلة وسمعت دقات الطبول، ليلة أقنعتنى فيها فرقة غينيا  
الصديقة بخطل رأبى وفساد مذهبى .

سته من الرجال يحمل كل منهم طبله . تبدأ دقات رتبية  
مجتمعة موحّدة . يسكت الخمسة ويظل واحد منها يلعب به  
صاحبه كيف شاء . يدخل ثانٍ ثم ثالث، مختلف الضربات  
موحّد النغم، والرابع يتحدّى بخبطات سريعة متلاحقة،  
يتابعه الخامس كأنّ الجن دخلت في أصابعه، وتظلُّ  
الأصابع تتلاحق بسرعة الضوء والسادس ينتظر دوره  
ليغطى على الجميع .

ولأول مرة أسمع - بل أشاهد - ما يسمونه (الهارموني)  
الموسيقى يبرز من بين دقات الطبول . يكاد يضحكك، أو  
يكاد يبكيك . يكاد ينطق كل طبل وهو يحاور زميله في مرح  
يفلت التصفيق من بين الأيدي الجامدة .

لم تكن طبولاً جوفاء على كل حال . لم تكن (دربوكة)  
منكودة أوقعها حظها السيء في أيدي لا تعرف لماذا تحبّطها  
ولا كيف . كانت طبولاً إفريقية لاهبة طروبة مطربة .

ولقد أبدلت من رأبى الذى كان!

## إلى نيروبي .. والعودة

تنطلق التحية باللغة السواحيلية من الفتى الأبنوسى وهو يجرى نحو حقيبة السفر يلتقطها من السيارة ويدخل بها الفندق الكبير فى قلب نيروبي، ثم يصعد بها إلى الغرفة ويضعها فى مكانها:

- جامبو معلمو!

يجىء الرد، وهو يرقب قادماً آخر بحقيبة أخرى، وهو يلهث مسرعاً، وهو ينظر إلى اليد والجيب، وهو ينتظر الشلنين الكينيين.

- أسنت أسانا.. معلمو!

تتلاحق الكلمات، والفتى الأبنوسى يلتفت دائراً بعد أن تناول الشلنين، ليلحق بحقيبة القادم الجديد.

«أحسنست إحساناً»!

ولست أدرى إن كنت أحسنست أم أسأت، فمبلغ علم



«المعلم» أن الفتي الأبنوسى سوف يقصد بهذين الشلنين وغيرهما أقرب حانة ليصب في جوفه ما كتب الله من كؤوس الخمر الرديئة يثقل بها رأسه وينسى همومه وآلامه، ولا يعود يذكر أن له وطناً وأهلاً وقبيلة. سوف يشرب ويشرب لينسى حقيقة واقعه المر، وتنفجر الضحكات من بين شذقيه وتنكشف أسنانه العاجية عن ابتسامة دائمة بلهاء كأنها قناع إفريقي أبدى لا يزيله إلا إذا صحا وذهب أثر الخمر الرديئة من يافوخه المستطيل كجوز الهند الأشعث.

منذ حطت الطائرة «الجامبوجيت» أو «الغولة النفاثة» حسب التعريب المتحذلق الجديد، فوق مطار نيروبي، تحمل جمعاً من أنصاف الآلهة البيض، وهذه الابتسامة الكينية المرسومة تنغرز في قلبى كالمسامير. كانت الأسنان العاجية اللامعة مسامير حقيقية تدمى الفؤاد، إنها ابتسامة لا يمكن التعبير عنها. هى ليست تعبيراً عن الرقة واللطف، ولا عن الترحيب والمجاملة، ولا عن السعادة وراحة البال. إنها ابتسامة تعسة.. بلهاء.. لا طعم لها على الإطلاق.

الكل يتسم.. رجال الجمارك، وسائق عربة الأجرة،

ومندوب وزارة الخارجية، ووزير التعليم، كأنما سحروا  
جميعاً على يد ساحر من غابات المساي أو سقوا شراب  
تعويذة خلابة، أو طعموا من نبات اللوتس اللبى القديم .

صحيح أن اللوتس انقرض لدينا منذ أيام المرحوم  
«هوميروس» وصحيح أنني لم أشيِّع بابتسامة ليبية واحدة في  
مطار طرابلس الدولي . لكنني أعرف أن الليبيين نادراً ما  
يضحكون، غير أنهم إذا ابتسموا جاءت ابتساماتهم من  
القلب، تحسُّ بها نابغة من الأعماق وإذا ضحكوا كان  
ضحكهم لسبب . . فإنَّ الضحك من غير سبب لقلَّة  
الأدب . . كما يقولون!

وعلى هذا الأساس فإنَّ ابتسامة أهل كينيا قليلة الأدب  
حقاً . هي ابتسامة مرَّة كالحنظل . وقد كرهتها من أول  
نظرة .

\* \* \*

ذهب الفتى الأبنوسى البشرة العاجى الابتسامة،  
وظفقت أحلُّ رباط الحقيية وأنفقد محتويات الغرفة  
المخصَّصة لى . مريجة بلا ريب . بها كل ما يطلبه المرء،  
خدمة ممتازة متكاملة . . وجملة تعليمات وأوراق مطبوعة

بدأت أقرأها لأتعرّف على ضوء ما جاء فيها. وقرأت:

- 1 - حافظ على نقودك.
- 2 - احذر اللصوص. والنشالين.
- 3 - ننصحك بأن لا تخرج إلى الشارع بعد الساعة التاسعة ليلاً.
- 4 - إذا اضطررت للخروج ليلاً فجانب الشوارع القليلة الإنارة وامش في الشوارع الرئيسية فحسب.
- 5 - لا تركب سيارة أجرة كيفما اتفق. يجب أن تتأكد من بطاقة السائق.

ما شاء الله . . ما شاء الله! هذه إذن «درة إفريقية» . .  
نيروبي. وحمدت الله أنَّ النهار لم ينتصف بعد وبذا يمكنني  
أن أخرج إلى الشارع وأرى نيروبي قبل أن يدركني الليل  
والقتلة واللصوص!

\* \* \*

الشوارع نظيفة لامعة، منسّقة جميلة. المحلات تعرض  
كل ما في أوروبا من بضائع. الميادين مرتّبة حتى لتحسب  
نفسك في أحد أحياء عاصمة الإنكليز. الفنادق سامقة

فسيحة رحبة القاعات. المتاجر والمكتبات كلها لا تشعرك  
بأنك في إفريقيا الغابات والسباع.

تمثال «جومو كينياتا» جالسا كأي رئيس قبيلة إفريقية  
مهيب يرتفع عشرين متراً ويطلُّ على ميدان وسيع ينظر إلى  
«قاعة كينيانا» للمؤتمرات الدولية. بناء القاعة على شكل  
كوخ إفريقي يضم ردهات وغرفاً جهّزت لتحوي آلاف  
المؤتمرين بكل ما يحتاجونه من نواقل الصوت وأدوات  
الترجمة الفورية، ومقاه ومطاعم وآلات اتصال. وبناء آخر  
يشبه برجاً عالياً يرتفع ثمانى وعشرين طبقة، فى كل طبقة  
غرف وقاعات ومقهى. وعلى القمة مطعم دوّار تجلس فيه  
لتتناول طعامك فلا تمضى ساعة حتى تكون رأيت نيروبي  
كلّها فى جلستك تلك. وأعلام الدول المشاركة فى مؤتمر  
«اليونسكو» التاسع عشر ترفرف أمام المبنى وترقب الطيور  
التي اتخذت سوايها مستراحاً إلى حين.

وفود الدول من أركان الدنيا الأربعة داخله وخارجه،  
تتفق وتختلف، تناور وتحاور، وينافق البشر بعضهم بعضاً  
بنظام كأنما اتفقوا عليه جميعاً. قرارات، ومشروعات  
القرارات، وتعديلات للقرارات، وتوصيات، ومناقشات،

وحكايات وهدرزات، والكل يسمع ولا ينصت، أو ينصت ولا يعي، أو يعي ولا يريد، أو يريد ولا يستطيع. كان الجورائعاً حقاً. لا هو بالحار ولا هو بالبارد. كان بين بين. وقد هدأت ضجّة العربات في الشارع وسكنت طيور كينيا سوى بضعة طيور ليلية يأتي صوتها من بعيد يذكرني بأشرطة «طرزان» فيما مضى من الزمان. أرقب الشارع من الدور الثالث وأرصد ما به، ولا أجروء على الخروج.. فإنّ تعليمات إدارة الفندق في منتهى الوضوح. ودهشت لأنّ الشارع لم يكن خالياً. أرى هياكل تتحرّك جيئةً وذهاباً وأشباحاً عند أعمدة النور الخافتة، وبضع عربات تقف فجأةً ويفتح بابها ثم تتحرّك بسرعة ولصوت عجالاتها صرير.

لم تكن المسألة تحتاج إلى ذكاء ولا بعد نظر على أيّة حال. فإنّ نيروبي - كما حضرت - وكما أعلمت صراحة فيما بعد، تتحوّل بعد التاسعة إلى مدينة أخرى من طراز آخر، لنساء الليل فيه نصيب الأسد، ينتشرن على امتداد الشوارع الكبيرة والبيادين الفسيحة هنّ والقتلة واللصوص على حدٍ سواء، وعلى الراغبين المجازفة وركوب الأخطار.

كان الأحد يوم عطلة. صحونا مبكرين رغم هذا أنا ورفاقي. جاءت حاملة صغيرة رسمت خطوط فوقها تشبه حمار الوحش، إشارة إلى تبعيتها لشركة سياحية هناك. وكان «شريف» سائقها يتكلم العربية بلهجة سودانية رغم تأكيده أنه من أريتريا. لعله أراد استجلاب الاهتمام في نهاية الرحلة بهذا الادعاء.

مئة ميل قطعتها الحافلة انتقلت فيها بين الفصول الأربعة. في أعلى الجبال كان ضباب ورذاذ مطر، وفي المنحدر كان دفاء وزهور ربيع، وفي السهل الممتد كان العرق ينضح من أجسامنا وضيق في التنفس شديد..

- انظر. تلك زرافة يا أستاذ! زرافة وأخرى وثالثة..  
ثم قطع بأكمله تعلو بأعناقها الغربية نحو الأغصان القصية لشجرة عجوز.

ونمضى.. ونمضى. لا شك أن رؤية حيوانات إفريقيا ممتعة. وأنا آمن داخل الحافلة أتبعها بآلة تصوير من بعيد. والجميع يصيح: هناك قطع من الفيلة. آه.. انظر إلى جملة الغزلان البديعة تلك. يا ليتنا نرى الأسد اليوم! غير أن

الأمل خاب في رؤية الأسد المصور. وقيل لنا إنه لا يخرج  
إلاّ مرتين من عرينه: في الصباح وفي المساء. ليفطر  
ويتعشى. وهو يوفر وجبة الغداء حفاظاً على رشاقتة،  
واتباعاً «للرجيم» كما علّق أحد الرفاق!

\* \* \*

يا إلهي!

آلاف من الطيور البيضاء اصطفت بنظام غريب من  
الأفق إلى الأفق. إنها لا تتحرك، كأنما هي جنود البحرية  
في طابور الصباح، فوق مساحة شاسعة من أرض طينية  
ملساء. مناقيرها الصفراء الفاقعة كأنما لمعتها خصيصاً لتبدو  
من بعيد مثل أزرار الجند النحاسية. وأقدامها الطويلة جداً  
مغروزة في الطين في حالة تأمل أبدي في الملكوت. منقار  
يتلو منقاراً.. انتباه!!

كانت طيور «الفلمنقو» مدرّبة بلا ريب على هذا  
الاستعراض اليومي لاستقبال أفواج السياح والزائرين.  
هكذا فكرت. وهي تعودت على رؤية البشر فلا تكاد تطير  
إذا رميتها بحجر، أو لعلّه الكسل الإفريقي. وحين نجح  
أصحابي في إثارتها وطار فريق منها ضيقاً بنا كانت أجنحة

الثلج الناصعة تشكّل لوحة متناقضة عجيبة وأنا أحيى  
بعض صبية تجمّعوا من حولنا بأجسادهم الابنوسية  
اللامعة .

- جامبو! ..

\* \* \*

- جامبو.. معلمو!

- جامبو.. معلمو!

جاء رد الصبية، مع الابتسامة ذاتها، وبرقت أسنانهم  
العاجية وهي تعكس أشعة الشمس القزبية جداً من  
رؤوسنا .

- ما اسمك يا بنى؟ .

كان سؤالاً عادياً يوجّه كأي سؤال محاولة لبدء حديث ما .

- جون كمييس . . معلمو .

- وأنت .

- فيليب سئيد . . معلمو .

خميس وسعيد . اسمان عربيان، إسلاميان، اسمان  
لأبوين من قبيلة المساي كانا مسلمين وجاء ابناهما ليصيروا



جون وفيليب. وكان وراء هذا التحوُّل بعثات التبشير  
النصرانية النشطة جداً هناك، وأرباب العمل الأوروبيون،  
وأعمدة الاستعمار من أجنب ووطنيين.

منذ عشرات السنين وأفواج المبشِّرين تتوالى على إفريقيا  
كلِّها وعلى شرقها بالذات. يأتون على هيئة أطباء وممرضات  
ومعلِّمين وتجار وموظفين بالإدارة ورهبان متبتلين.

ومئات الملايين من الجنيهاً والدولارات تنفق دون  
تقدير ليس لتنصير الوثنيين فحسب بل وتحويل المسلمين عن  
دينهم كذلك. وهم إن فشلوا مع الآباء والأمهات فقد  
نجحوا مع أطفالهم.

كانوا يأخذون أطفال الفقراء إلى مدارس الإرساليات -  
وثنيين ومسلمين - ويربُّونهم كيف يشاءون. وبذا استطاعوا  
تحقيق النجاح المطلوب.

\* \* \*

رنَّ جرس الهاتف في غرفتي وكان المتحدث طيباً  
معروفاً بنشاطه في المجتمع الإسلامي هناك. وهو من أصل  
آسيوى. دعاني إلى عيادته القريبة على قده من الشاي.

استجبت للدعوة.. . وحين وصلت استقبلني بترحاب  
وأدخلني قاعة صغيرة جلس فيها رهط من الشباب الصغير  
السن وفتاة واحدة كلهم كينيون. قال:

- هؤلاء جنودى. إنَّ بعضهم فى المدارس الثانوية.  
وبعضهم يعمل لكسب قوته.. . فليس الجميع بقادر على  
دفع مصروفات المدرسة التى تبلغ ثلاثة جنيهات فى السنة!  
إنهم من أماكن مختلفة وقبائل شتى وهم مسلمون يحضرون  
دروساً فى الدين ويبحثون عن المستقبل.

تحدّث الرجل كثيراً وكان حديثه مليئاً بالأسى مثل أى  
حديث تسمعه هناك فيما يتعلّق بالإسلام والمسلمين  
وتحدّثت أنا إليهم. شعرت برابطة قوية تشدّنى نحوهم.  
وتحدّث بعضهم عن أمله فى استكمال دراسته للعودة إلى  
قبيلته أكثر علماً وتحصيلاً، وكانت أنظارهم مشدودة إلى  
ليبيا وأحلامهم أن يحصلوا منها على كل شىء يعينهم فى  
كفاحهم المرير من أجل العيش والعلم والإسلام.

تذكّرت «جون خميس» و «فيليب سعيد» وأنا أطوف  
ببصرى فى الوجوه «الابنوسية» أمامى. وأدركت ثقل

الواجب وعظم المسؤولية. ولم أجد ما أقول.

\* \* \*

عدت بذاكرتي إلى رحلة أمس. تذكّرت رعاة قبيلة  
المساي وهم يتسلّقون صخور جبل الجرف خلف قطع  
الماعز وليس على أجسادهم سوى خرقة حول الوسط.  
بعض منهم تطوّر ووقف على الطريق يبيع للسوّاح تماثيله  
الخشبية والأطباق الملوّنة وجلود الخراف الصوفية  
البيضاء. . وتعلّم كيف يزيد في السعر عند العرض الأول  
لينقصه إلى الربع بعد المساومة والجدال. بينما ظلّ البعض  
الآخر لا يعرف من الدنيا سوى الغابة والجبل وقطيع الماعز  
الباحث عن عشب أخضر بعد طول مواسم الجفاف.

وأدركت سرّ الابتسامة البلهاء على الشفاه الكينية.

أدركت أن نيروبي درّة إفريقيا فعلاً. . لكن لأنصاف  
«الآلهة» البيض، يستمتعون بها كما يشاءون. نظافتها لهم  
وحدهم، وفنادقها لهم دون غيرهم. ومنتزعاتها لهم دون  
سواهم. أمّا السود فهم العبيد حقاً وفعالاً وليس قولاً مجازياً  
بحال من الأحوال.

أدركت أن الفقر والمرض والجهل من نصيب السكّان الوطنيين، يذرفون دموعهم في الأكواخ الحقيرة في ظلمات الليل والغابة ويتسمون للغريب علّه يوجد بشلن أو شلنين يدفع في كأس خمر رديئة تنسيهم أحزانهم المرّة.

عرفت أن الاستعمار كان شاملاً: اقتصاداً وتجارةً وتعليماً وديناً وخلقاً. وأنه مزّق التقاليد الإفريقية ليجعل من الدعارة سريعةً، ويحول الأطفال عن دينهم، ويسلب كرامتهم ويستحلّ عرضهم.

وعلمت إلى أى مدى نحن مقصّرون. «ونحن» نعنى المسلمين جميعاً والعرب بصفة خاصة. ولست أدري إلى متى هذا السبات العميق والخطر يشرع مخالبه لبيتلنا كما ابتلع إخواناً لنا من قبل.

\* \* \*

طائر الفلمنقو الحزين في وقفته السرمدية لا يزال هناك. وتمثال جومو كينياتا في جلسته المهيبة يطلُّ على ميدان المؤتمرات.

وجون خميس وصاحبه فيليب سعيد يتسمان ببلاهة.

وطائرة (الغولة النفاثة) تدور محركاتها الجبّارة في رحلتها الطويلة إلى لندن تستعدُّ للإقلاع. والمضيعة الشقراء تعلن بصوت مخملي:

- سيداتي وسادتي. مرحباً بكم على متن طائرة الجامبو..

ولم أسمع بقية حديث المضيعة. فقد ملأت مخيلتي صورة الفتى الابنوسى المبتسم وهو يميني:  
- جامبو.. معلموا!

من "الأُسبوع السِّبْاسِي"

1979



## إفريقيا.. إلى أين؟

في الخمسينات كانت بداية الوهج الإفريقي، الستينات شهدت مرحلة الفعل ورد الفعل في القارة السوداء، ونحن في أواخر السبعينات نسأل هذا السؤال:

- إفريقيا.. إلى أين؟

كانت ثورة يوليو بقيادة جمال عبد الناصر انفجاراً ضخماً أضيف إلى جملة الانفجارات الأخرى التي بدأت تنزل الأرض تحت أقدام المستعمرين الذين جعلوا من القارة العظيمة مجرد مزرعة ومنجم كبيرين. ولم تلبث الثورة الناصرية أن أخذت زمام المبادرة أثر جملة معارك مباشرة مع الاستعمار في مصر والوطن العربي. وكانت إفريقيا تقع ضمن الدوائر الثلاث المشهورة التي حددتها (فلسفة الثورة).



كان عبد الناصر يسند الانتفاضات الثورية في القارة، وكانت الحركات التحررية تسنده هي الأخرى في صراعه مع الاستعمار. وإلى جانب ما سبق من حركة (ماو ماو) في كينيا، برزت حركات التحرير في المغرب وكانت أهمها وأعماقها أثراً الثورة الجزائرية الكبرى، وظهرت زعامات إفريقية سوداء من مثل نكروما وموديبو كيتا وسيكوتوري ثم باتريس لومومبا من بعد.

كانت أفريقيا تتفجر غضباً وثورة، وتنتفض شعوبها واحداً بعد الآخر، في صدام مباشر مع الاستعمار والاحتلال الأجنبي، وكان النضال المسلح وسيلة فعالة في إجبار المستعمرين (بريطانيا وفرنسا بالذات) على إدراك الواقع الجديد والتسليم به ثم الإذعان لمطالب الشعوب الإفريقية في الحرية والاستقلال. . وهكذا شهدت أواخر الخمسينات وبداية الستينات سلسلة متواصلة من دول إفريقية نالت استقلالها ورفعت أعلامها، واندفعت زرافات لتنضم إلى الأمم المتحدة وليخطب رؤساؤها من فوق منبرها مزهوين فرحين تأخذهم النشوة وتستخفهم بالبهجة والحبور. . ومعهم الحق كله. . إذ لم يبق من

الاستعمار الأوروبي المباشر لقارتهم سوى جيوب قليلة تمثلت في جنوب إفريقيا وزيمبابوي، والمستعمرات البرتغالية التي نالت حريتها السياسية بعد ذلك بقليل. وبذا بدأت مرحلة أخرى هي مرحلة الفعل ورد الفعل.

الفعل جاء من حركات التحرر التي أشرنا إليها، أما رد الفعل فقد أتى من جانب الدول الاستعمارية الأوروبية، بل حتى من تلك التي لم يكن لها (شرف) استعمار القارة مباشرة، بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية بما فيها ولاية إسرائيل.. كيف؟

أعلنت الدول الاستعمارية استسلامها للأمر الواقع ظاهرياً، بل رحبت بانطلاقة أفريقيا الجديدة، وكان ديغول وكندي (زعيمين) كبيرين ومشجعين شهيرين لمرحلة الانعتاق والانطلاق هذه.. وقد أبرز هذا الموقف بوضوح في برامج (المساعدات) الأمريكية و(صراع) الزعيم الفرنسي داخل بلاده ضد معارضي سياسته. بيد أن موقف ديغول وكندي لم يكن سوى تغطية ذكية لهدنة مؤقتة أعاد فيها الاستعمار حساباته وقرر خطة جديدة يعود بها من النافذة بعد أن أخرج من الباب..

وهنا يدخل عامل جديد يتجسد في صراع القوى الكبرى ووجود عناصر أخرى في الميدان الذي كان خالياً من قبل، إلى جانب أن شعلة الثورة لم تكن خمدت ولم يكن ممكناً مواجهة النار الملتهبة إلا بتفاديها أو الالتفاف حولها وبذل الجهد لإطفائها.

هنا نجد نفسنا في أواسط الستينات، وبين ثورة اليمن وحرب يونيو 1967 توالى أحداث ضخمة لها أثرها العميق على مسيرة أفريقيا. شغل عبد الناصر بأحداث المنطقة العربية، ثم كانت ضربة يونيو القاصمة. وبدأ تراجع الثوار في أفريقيا السوداء. . الاغتيالات، والانقلابات، والدسائس، والمؤامرات ومرحلة من الاستدراج المتأنى لتقع أفريقيا في الفخ المنصوب، وشاهدت الستينات ثم السبعينات سلسلة متوالية من الهجوم الاستعماري على مختلف الجبهات السياسية والاقتصادية، والعسكرية أيضاً. سياسياً: أطيحت الزعامات المضادة: لومومبا، موديبوكيتا، نكروما، أحمدو بيلو. . ثم عبد الناصر. سكت الماوماو عن الزئير وتحول إلى قطة تموء بهدوء. . نصّبت دمي تلعب على المسرح، تحركها خيوط السادة

الكبار، وصارت أسود أفريقيا وغمورها، بل وفيلتها مجرد خراف ودواجن مسلوقة الإرادة.

اقتصادياً: دخلت الشركات المتعددة الجنسية، وانهالت المشروعات الإسرائيلية - الممولة من أوروبا - وتم التحكم في مصادر القارة الطبيعية وفي تجارتها، وكل ما يمت للاقتصاد بصلة بطوق شديد الإحكام.

عسكرياً: لعب المرتزقة أدوارهم في مختلف أنحاء أفريقيا، وكان التدخل العسكري المباشر في الكونغو وموزمبيق وانغولا، إضافة إلى روديسيا وناميبيا، ثم جاء سافراً في تشاد على حدودنا الجنوبية.

بعد هذا بدأ تنفيذ الجزء التالي من الخطة: فصل أفريقيا عن العرب. وهو أهم نقطة بالنسبة إلينا في هذه المرحلة بالذات، ذلك لأن خسارة أفريقيا لنا أو خسارتنا نحن لأفريقيا طعنة مزدوجة يحقق بها الاستعمار الجديد جملة أهداف ليس أقلها إضعاف قوة المواجهة له وانهيار المقاومة لمخططاته ثم بالتالي عودة الاستعمار بشكله القديم أو الجديد على حد سواء.

يَصوِّرُ العرب الآن في كل مكان على أساس أنهم سبب (بلاوى) الدول الأفريقية كلها، باعتبارهم أهل النفط والحل والربط، ولا يشار مطلقاً في هذا المجال إلى الدول النفطية غير العربية (مثل فنزويلا وإيران وأندونيسيا والمكسيك فضلاً عن بريطانيا والنرويج وأمريكا.. . نيجيريا!) وبذا صار العرب وحدهم المسؤولين عن متاعب العالم - ومنه أفريقيا - ومشاكله الاقتصادية.

ويصوِّرُ العرب أيضاً بأنهم (تجار العبيد) الوحيدون ويركِّز على هذا الأمر في كل ميدان. ولا أحد يسأل عن أصل الثلاثين مليون زنجي في أمريكا وحدها، ولا عن عشرات الملايين منهم في أمريكا الجنوبية وجزر الكاريبي.

ويفصل الآن في المحافل الدولية بين شمال الصحراء وجنوبها فصلاً متعمداً يحسه المرء، إيهاماً للأفارقة السود بأن أهل الشمال لا يمتون لأفريقيا بصلة. ولا أحد يتحدث عن جنوب أفريقيا ولا عن الآسيويين في شرقها أو الأوروبيين في كل أنحاءها.

وهكذا تستمر الخطة، ويرى المرء نجاحها - للأسف

الشديد جداً - في عدة أقطار أفريقية تظهر من خلال مواقفها داخلياً وخارجياً، وهكذا نجد أنفسنا نسأل: أفريقيا.. إلى أين؟! .

وتبقى حقيقة يجب أن تقال - شاء من شاء.. وكره من كره: لقد خمدت أغلب شعل الثورة في هذه القارة.

● سقطت مضر بيد رئيسها في حمأة العفن الاستعماري.

● تحول أغلب حكام القارة إلى دمي وألعاب تتحرك بالخيوط والنضائد.

● هجوم استعماري شديد الترابط والارتباط.

● فشل نفط العرب في أن يزيد اللهب الثوري، بل تحول أحياناً إلى ماء مثلج.

● صار الضغط الاستعماري واضحاً في كل المجالات.

وكلمة أخرى تقال.. شاء من شاء وكره من كره.. أيضاً:

تبقى هذه الجماهيرية منارة الأمل للشعوب المقهورة

المغلوبة على أمرها وهي - بحكم ظروف ثورتها وظروف العصر ذاته - مناط الرجاء في صد الهجمة المضادة لمستقبل القارة الإفريقية، ولا شك أن اهتمامها بأفريقيا وتحالفها مع بقية القوى التحررية فيها، وكشف المناورات الاستعمارية في الداخل والخارج لشعوب القارة، ومساندة قوى الثورة ضد الظلم والاستغلال، هو الذى يمكّننا من الإجابة عن سؤالنا:

- أفريقيا... إلى أين؟

# ... والرأى العام العالمى ؟!

فى نشرات الأخبار والتعليقات والمقالات والمقابلات  
والخطب الرسمية وغير الرسمية والمناقشات والمجادلات  
والمناظرات والمطارحات .. فى وسائل الإعلام والمؤتمرات  
الدولية وغير الدولية واللقاءات والاجتماعات والمباحثات  
الودية وغير الودية. فى الصباح والمساء وعند القيلولة  
والهزيع الأخير من الليل .. ترانا مشغولين منشغلين بهذا  
الذى يسمى - الرأى العام العالمى - ..

نكسبه نخسره، معنا ضدنا، تغيرٌ ثبت، أيدٍ عارض،  
وقف قعد، اتفق انقسم .. إلى آخره إلى آخره .. دوامة أثر  
دوامة من القلق والترقب ومحاولة اكتشاف إلى أين يتجه  
هذا المعزّز المكرم .. الرأى العام العالمى ...

تطرح قضاياها واحدة بعد أخرى - تطرح أرضاً - فى



قاعات الأمم المتحدة ومنظماتها التي لا يحصيها العدد،  
وننطلق إلى اجتماعاتها وفداً بعد وفد. وأيدينا على قلوبنا  
ونحن نحصى - قبل التصويت - عدد المؤيدين والمعارضين  
والممتنعين عن التصويت.. خوفاً أو طمعاً. وتكتب  
التقارير المطولة تحلّل وتعلّل وتتحدث كلها عن هذا الغول  
المرعب الذى يقض مضاجعنا ويطيّر النوم عن أجفاننا  
ونحن نلهث وراءه ونجزع.. الرأى العام العالمى..

فما الحكاية؟؟..

ما هو هذا - الشيء - الغريب العجيب المرتدى طاقة  
الإخفاء؟؟.. نحسه ولا نراه. ويبدو لنا مثل الزئبق لامعاً  
براقاً منزلقاً رجراجاً لا يمكنك أن تحتويه بين إصبعيك؟.

قالوا: أن تكسب الرأى العام العالمى يعنى أن تجد لك  
أنصاراً فى كل بلد من هذا العالم.. أنصاراً هم مجموع  
المؤيدين لك، يكونون مجموع الناخبين يختارون حكومات  
تكون بالتالى مجموع الأصوات المساندة فى مجموعة  
المنظمات الدولية... فتكسب!

وقالوا: إن تقنع جميع شعوب الأرض - بألوانها

المتعددة - بأنك على حق، وإنك مثال الخير والصلاح -  
تفعل هذا بألف لغة ولغة مما سبق ذكره أعلاه وما لم  
يسبق. حتى تندفع كلها وراءك.. فتكسب!

وقالوا: الشطارة في اكتساب الرأي العام العالمي أن  
تكون متغلغلاً في مسام جلود الأربعة آلاف مليون ابن آدم  
على هذه الأرض، وأن تستطيع بإيماءة خفيفة أن توجههم  
يميناً ويساراً وشمالاً وجنوباً... فتكسب!

وقد ألفت الكتب وأعدت المحاضرات وقدمت البحوث  
والدراسات وعلى مدى عشرات السنين شغلونا بهذا..  
الرأي العام العالمي.. ووقعنا نحن - بسذاجة - في  
الأحبولة المنصوبة وسقطنا كالذبابة التعسة في بيت  
العنكبوت.

فما الحكاية؟..

الحكاية أن (حكاية) الرأي العام العالمي لا تعدو مجرد  
كذبة أخرى لو عرفنا حقيقتها لما أصبح لها معنى ولا محتوى  
ولا قيمة على الإطلاق.. ولو أدركنا كنهها لصارت  
المستحيلات أربعة:- الغول والعنقاء والخل الوفى... ثم

نضيف الرأى العام العالمى ! فىلى أى مدى يمكن تبرير هذه المحصلة المؤلمة؟ ..

إن التجربة هى أداة المعرفة الأولى . ومن التجربة الطويلة المرة ندرك هذه الحقائق :

● المصلحة، وأعنى الاقتصادية منها بالذات .. هى الموجّهة الحقيقية لمواقف الأفراد والجماعات ..

● كل ما يقال عن ضغوط الرأى العام فى أى بلد من بلدان العالم، على اختلاف نظمه، أمر لا وجود له على الإطلاق، إذ أن الناخب لا يمارس أى نوع من الضغط على من انتخبه بعد انتهاء عملية الانتخاب ..

● أما بالنسبة للحكومات فإنها لا ترتبط بشىء سوى برنامجها الذى اختيرت على أساسه - إن فعلت - وهو غالباً ما يكون ملتزماً بالسياسة الداخلية، ولا علاقة له بالسياسة الخارجية، ولا بقضايانا بطبيعة الحال .

● إن كل ما يردّد عن إمكانية توجيه وسائل الإعلام العالمية هراء لا طائل من ورائه سوى تبذير الوقت والجهد والمال .. إذ لا يزيد مجموع المتحكمين فى هذه الوسائل عن

عشرة رجال هم مديرو وكالات الأنباء والمؤسسات الإذاعية والصحافية العملاقة، تربطهم جميعاً سلسلة متصلة من الشركات التجارية الأخطبوطية المهولة..

ثم تظهر لنا عدة حقائق أخرى تتلخص في أن هذا الرأي العام العالمي شيء موهوم غير موجود على الحقيقة.. هل استطاع هذا الرأي أن ينهى قضية واحدة من قضايا جنوب أفريقيا أو أمريكا اللاتينية أو آسيا.. دعك من قضايا الوطن العربي؟.. هل أمكنه أن ينهى احتلالاً أو يرفع ظلماً أو يمنع غزواً أو يسكت صوت المدافع؟.. هل استطاع أن يحقق عدلاً أو يقر حقاً. مهما بدا الحق جلياً كشمس الظهرية؟ مطلقاً..

فما الذي ينبغي عمله إذن؟...

لنلخص ما سبق ولنخصص منه إلى نتائج محددة:

● الرأي العام العالمي أمر وهمي، فلا يجب أن يشغلنا بهذا الشكل المثير.

● المصالح هي الموجّه الوحيد للمواقف، فلنحدّد نحن موقفنا على هذا الأساس...

● إن الصورة الخارجية لوطن ما إذا كانت هذه الصورة  
تهمنا - تتحدد بمدى النجاح الداخلى على المستويات كافة،  
فليكن الاهتمام ببناء الداخل سبيلنا إلى النجاح في  
الخارج.

لقد ضربت بعض الشعوب نطاقاً حول نفسها. غير  
ملتفتة إلى هراء الرأى العام العالمى، متفرغة للبناء  
والتشييد والتنظيم.. وانصرفت أخرى عن لغو القرارات  
الدولية ومناورات الاجتماعات والمداولات لتهتم بإنماء  
قوتها الذاتية.. وامتنعت غيرها عن النظر إلى عدد المؤيدين  
والمعارضين.. ولكنها كسبت.. ما يسمى بالرأى العام  
العالمى بالمقاييس الموضوعية حين ربطت هى هذا الرأى  
إليها ولم تربط هى إليه..  
... والرأى العام العالمى؟.

إنك توشك أن تضحكنى.. للأسف!

## من يستحزن من ؟

نحن نمر الآن بمرحلة إعادة الحسابات . وهى مرحلة تعنى إعادة النظر من جديد فى جميع الأفكار المتوارثة وتقييم النظريات الموروثة ، تقييماً يستند إلى جملة معطيات المراحل السابقة بكل هزائمها وانتصاراتها ، بحلوها ومرها على حد سواء . ولا شىء يشغل بالنا ويأخذ علينا جماع تفكيرنا وحياتنا أكثر من هذا الصراع الذى تخوضه الأمة العربية ضد عدوها الشرس المتمثل ، ظاهرياً ، فى الكيان الصهيونى المزروع فى فلسطين .

منذ عقود طويلة من الزمان ونحن نلقن هذا الدرس : الصهيونية تتحكم فى العالم ، واليهود يسيطرون على كل مقدراته ، اقتصاداً ومجتمعاً وإعلاماً وعلمياً وتقنية ، وهم استطاعوا أن يسخروا القوى كلها - غرباً وشرقاً - فى سبيل خلق دولتهم والدعاوة لها وترسيخ وجودها . استطاعوا أن

يسخروا أوروبا، ثم أمريكا، ولا يزالون، لإيجاد كياناتهم الصهيونية ثم تثبيته على مر السنين. الله غالب! ما الذي يمكن عمله وهم على هذا المستوى من الذكاء، بل العبقريّة، والقدرة والسيطرة على مختلف أجهزة العالم؟ هكذا لقنا.

### فهل هذا صحيح؟

هل حق أن الغرب، أعني أوروبا وأمريكا بالذات، مغلوب على أمره إلى هذه الدرجة من المهادنة بل الخنوع لليهود؟ هل بلغ اليهود من المقدرة (السوبرمانية) هذا الحد الخارق حتى لا يقف في سبيلهم معترض إلا سحقوه؟ هل صحيحة هذه (الأسطورة) عن النفوذ الصهيوني في الدوائر الغربية على مختلف مستوياتها؟ وأخيراً.. هل حق أن اليهود هم موجهو سياسة الغرب المعادية للأمة العربية في كل المجالات، دفاعاً عن إسرائيل المدللة بهذا الشكل الذي لم يعرف - ولن يعرف - التاريخ له مثيلاً، وأن الغرب (المسكين) أسير السيطرة الصهيونية لا يستطيع منها فكاكاً؟

لنعد حساباتنا.

ويجب ألا نخدع أكثر مما خدعنا بهذه المقولة الخطيرة..

فالحق أن الحديث عن السيطرة الصهيونية والنفوذ اليهودي وقوة تأثير إسرائيل في الدوائر الغربية ليس سوى أكذوبة كبرى ألقيت إلينا وصدّقناها نحن على مر السنوات. وكان الهدف من هذه الأكذوبة يشتمل على عدة نقاط:

● أولها: إيهام الأمة العربية بأن عدوها بالغ القوة والمنعة، حتى أن الغرب ذاته خاضع له، فلا جدوى من المقاومة ولا نفع من رفع السلاح في وجهه.

● وثانيها: تبرير مواقف الغرب العدائية تجاه أمتنا - على المستوى العسكري والاقتصادي والسياسي حتى يجد عملاؤه في وطننا تكئة يستندون إليها في الدفاع عن مصالحه وتخفيف رد الفعل العربي تجاهه.

● وثالثها: تبرير مواقف الساسة الغربيين أمام مواطنيهم أنفسهم، حين يجدون بعض المصالح الغربية يصيبها الضرر، ولذا يضخم في ذهن المواطن الغربي مدى النفوذ الصهيوني ويقدم اليهودى باعتباره نموذج الذكاء والعبقرية والمقدرة.

ولنعد حساباتنا مرة أخرى ولنسأل:



من يستخدم من؟ هل يستعمل اليهود أوروبا لخدمة أهدافهم أم أن أوروبا هي التي تستغل اليهود لتحقيق أغراضها؟

ولنضع هذه الحقائق أمام أنظارنا:

1- لم يتعرض اليهود في أية منطقة في العالم مثلما تعرضوا له في أوروبا من اضطهاد. فقد أخرجوا من إنجلترا ثلاث مرات، وطردها من إسبانيا تماماً مرتين، وعذبوا في فرنسا وألمانيا.

2- فشلت الحروب الصليبية على مدى مئات السنين في السيطرة على العالم العربي والإسلامي وكانت المقاومة من العنف بحيث يشس الغربيون من تحقيق أهدافهم عن هذا السبيل.

3- كان إخراج اليهود من أوروبا حلماً يراود ملوكها - لأسباب دينية وعرقية - وقد وجد الغربيون أن اليهود يعودون إليهم كلما طردوهم مرة بعد مرة.

4- إذا اتحد الوطن العربي بعد يقظته الحديثة فإن الدائرة ستدور على الغرب بحكم قانون الحضارات وتسلسل

أحداث التاريخ. وهذا أكبر خطر تخشاه الحضارة الغربية باعتبار الحضارة الإسلامية هي المتحدى الأول لوجودها بكل ما تحمله من أسس.

5- إن مصالح أوروبا الغربية وأمريكا في الوطن العربي - في العصر الحديث - وتغير موازين القوى بظهور نماذج سياسية واجتماعية أخرى في شرق أوروبا وآسيا ذات مصالح وتطلعات، لا تسمح بصدام مباشر مع الأمة العربية على نسق الحروب الصليبية أو طراز الاستعمار في القرن التاسع عشر، إذ أن النتيجة معروفة مسبقاً إذا ما وقع هذا الصدام.

لذا - هكذا يمضى التفكير الغربي - لا بد من استخدام أداة جديدة - قديمة تكون هي وسيلة تحقيق الأهداف مع الظهور بمظهر البراءة الكاملة، بل مظهر المغلوب على أمره على كل حال. وكانت الصهيونية هذه الأداة. استغلت أوروبا الأحلام اليهودية القديمة، وأرثت نار الحقد في نفوس اليهود، واحتضنت مدينة بال بسويسرا أول مؤتمر صهيوني يفكر جدياً في إنشاء دولة يهودية في فلسطين. وتوالت الأحداث: وعد بلفور - خيانة بريطانيا للعرب،

تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين - مد اليهود بالسلاح -  
دخول أمريكا إلى ساحة اللعبة - إنشاء الكيان الصهيوني  
- تفتيت الجبهة العربية من الداخل عن طريق الخونة  
والعملاء - إلى آخر ما يعرفه الجميع .

● صرف اليهود النظر عن إنشاء وطن قومي لهم في  
أوغندا.. لماذا؟

● امتنعوا عن الهجرة إلى أستراليا القارة البكر الفارغة  
من السكان.. لماذا؟

● عمّقت الخلافات العربية، وتواطأ الغرب مع اليهود  
في كل خطوة.. لماذا؟

● جعلوا من إسرائيل مخزناً حربياً يضم أحدث  
الأسلحة، بما فيها القنبلة الذرية وآخر طراز أدوات  
الموت.. لماذا؟

ليس لسواد عيون اليهود بالطبع، ولا لأن سيطرتهم  
بلغت القمة كما يقال لنا. لسبب بسيط: هذا هو السبيل  
لمنع وحدة العرب والخنجر مغروز في القلب، وحرمانهم من  
تحقيق تطلعاتهم، وصرْفهم عن أسباب التقدم انشغالاً

بمحرابة العدو المزروع في أرضهم .

إسرائيل هي بالضبط مخلب القط . ولا يمكن بالطبع أن يفصل القط عن مخلبه ، فهما في جسد واحد . وإذا كان اليهود استغلوا موقف الغرب بهذا الشكل ، فإن الغرب ذاته استغل اليهود بشكل أفضل بالنسبة إليه .

وهكذا حققت أوروبا ( وأمريكا أوربية النشأة والاتجاه ) جملة أهداف بعمل واحد : تخلصت من اليهود ، وأجبرت العرب على التقهقر الحضارى ، واستمرت كالعلة تمتص دم الأمة العربية - بمنتهى البراءة والطهر . . . والله غالب !

لنعد حساباتنا للمرة الثالثة :

هراء كل ما يقال لنا . وكذبة كبرى هذا الضجيج عن سيطرة الصهيونية على أجهزة الإعلام والاقتصاد والتقنية . وتخريف كل ما يلقى إلينا من حديث عن عبقرية اليهودى وتوقد ذكائه . فاليهود - وارجعوا للإحصائيات - لا يمثلون نسبة تذكر في عداد العباقرة . الدعاية هي التى تنفخ فى أينشتاين حتى ينسى إلى جانبه سواه . وهم - بحكم

التكوين العرقي المحصور - أقل من غيرهم مستوى ذكاء .  
علينا أن ندرك الحقيقة ونجابهها إن أردنا الصحة من  
سكرتنا هذه : الغرب استخدم اليهود ضد الأمة العربية  
والإسلامية . وكان اليهود على استعداد . فالعدو واحد  
إذن . كل ما في الأمر أنه لبس قناعاً وخدعنا به طويلاً .  
بقى علينا تمزيق القناع ، ثم الوجه بعد ذلك .  
هذا هو الطريق . . ليس غير . .

## إنباه !

«انهيار 79». رواية مثيرة صدرت منذ عامين، تنبأ فيها كاتبها بوقوع صدام عسكري رهيب في منطقة الخليج العربي بين القوى السياسية والاقتصادية يحدث في عامنا هذا الذي نحن فيه ويكاد يؤدي إلى حرب عالمية نووية مدمرة.

بالأسماء المعروفة للشخصيات الحقيقية في المنطقة وأسماء العواصم والمدن والمصارف والفنادق بل حتى عناوينها وأرقام هواتفها، وكمية هائلة من المعلومات المسربة إلى الكاتب عن الحياة الشخصية لأبطال روايته، يجعل المؤلف قارئه ممسكاً بأنفاسه يتوقع أن يسمع أخبار الصدام المفزع في نشرات الأخبار أى يوم من الأيام. وقد جعل الكاتب الشخصية المحورية لروايته شاه إيران المخلوع محمد رضا

بهلوى وحوله ركّز جملة الأحداث .

وقد ذهب الشاه إلى الجحيم بثورة إسلامية عارمة لم يحسب الكاتب أو غيره لها حساباً. وبذا انقلبت الموازين وتغيرت المقاييس وصارت الرواية - وما أحيطت به من روايات جانبية - مجرد حكاية خيالية مثل غيرها من الحكايات .

المهم ليست الرواية التي احتلت رأس قائمة أكثر الكتب انتشاراً طيلة شهور، ولا ما جاء فيها من نسج خيالي أو حقيقي . المهم ما بدأ به المؤلف روايته معدداً أسباب الانفجار المتوقع هذا العام - بعد سنتين من صدورها . من جملة الأسباب عنده غرور الشاه الفارسي وطموحه الشخصي لبناء امبراطورية قورش من جديد والاستيلاء على منابع النفط العربية مثلما استولى على جزر عربية من قبل ، ثم تدعيم الكيان الصهيوني لهذا الطموح ومساعدته على المضي في خطته إلى جانب الوهن العربي في المنطقة وتشابك المصالح الأجنبية بل وترباطها . . بيد أن السبب الأهم لديه هو: جشع أوروبا!

أجل جشع أوروبا ونهم مصارفها وشره رأسماليها

الذى لا ينتهى عند حد. فالأوروبيون - يقول الكاتب - مصابون بمرض أبدي أذى يعمى أبصارهم ويصرف انتباههم إلى أية حقيقة أخرى غير ما يحقق لهم مزيداً من المال كل يوم. الأوروبي - بجبلته - خلق هلعاً، لا يشبع، بل لا يريد أن يشبع. وقد تعود على مدى مئات السنين أن تصب كل الخيرات فى خزينته ويرفض كل الرفض أن تشاركه شعوب أخرى فى النعمة أو تتمتع كما يتمتع هو بمستوى أرفع فى الحياة، مهما كانت الأسباب!

أوروبا مستعدة بالتظاهر بالمودة، وأن تربت على ظهور الشعوب المتخلفة، وأن تهدهدها بأغنية السلام العالمى وتخدرها بترنيمة الأخوة الإنسانية - ما دامت هذه الشعوب متخلفة فعلاً، فقيرة فعلاً، جاهله بكل شىء.

وهى مستعدة للتقرب من العرب مالكى النفط ما دام هؤلاء العرب على حالهم غير منتبهين لاستغلال خيراتهم ولا مدركين أن الغرب يمتص ثروتهم بسرعة ونهم بينما يطعنهم فى الظهر والقلب على حد سواء. فإذا استيقظ العرب لحقيقة هذا الاستغلال البشع، وطالبوا بحقوقهم المهضوم ورفعوا أسعار النفط ليقارب عشر زيادة الغرب



لأسعار منتجاته الصناعية، كشر أهل أوروبا عن أنيابهم وأبرزوا المخلب مع الناب.

ذكرنى بهذا كله حديث المستشار الألماني هلموت شميدت. كان حديثاً - مفاجئاً - لهجته تهديد ولغته وعيد. ألمانيا تهدد العرب بالويل والثبور وعظائم الأمور وتتوعد بالانتقام من سادة الطاقة وأربابها.

وحديث المستشار الألماني شيق رغم لهجته. شيق لأنه يفتح أبصارنا على حقيقة ألمانيا الاتحادية الناطقة الرسمية باسم السوق الأوروبية المشتركة التي هي - رغم كل ما يقال - ليست سوى سوق أمريكية في حقيقتها. ويزيد حديث الهر المستشار تشويقاً صدوره مباشر بعد اجتماعه بالرئيس الأمريكى جيمى كارتر. كان حديثاً - مفاجئاً - حقاً!

ما الذى يحرك المستشار هلموت شميدت ليدلى بتصريحه المهدّد؟.

الجشع الأوروبى والتشجيع الأمريكى.

ولنلق نظرة واحدة على بعض الحقائق فى هذا المجال:

● ميزانية بريطانيا - الدولة الأفقر في أوروبا الآن - تفوق وحدها جميع دخول وميزانيات الدول العربية من المحيط إلى الخليج .

● تنتج بريطانيا ما يكفيها من الغاز وتصدّره، وتنتج ما يكفيها من النفط وتصدّره، وتنتج النرويج وتصدّره .

● الولايات المتحدة الأمريكية يمكنها أن تغرق أوروبا كلها بالنفط، ويفيض، لكنها تحتفظ بمخزونها لليالي الحالكات السواد .

● يمكن أن نضيف إلى رصد الغرب النفطي دولاً أخرى مثل كندا والمكسيك وفنزويلا ونيجيريا وأندونيسيا . الخ .

أليس هو الجشع الأوروبي إذن؟

أليس هو التشجيع الأمريكى يأتى فى فترة تحيك فيها الولايات المتحدة المؤامرات ضد العرب وقضيتهم المقدسة وتنصب الفخاخ للأقطار العربية كل يوم؟

أليست هذه سياسة الجزرة والعصا . . أو سيف المعز وذهبه؟ ولماذا العرب بالذات؟ ولماذا الهر شميدت بالذات؟

الغرب ينسى كثيراً - أو يتناسى - ولا يذكر سوى  
مصلحته. ينسى الغرب أن الدنيا لم تعد القرن التاسع  
عشر، وأن الوعي القومي مدعوماً بالانطلاقة الثورية  
العربية صار أمراً لا جدال فيه. ينسى التغيرات الجديدة في  
المنطقة، وما هي مقبلة عليه من تغيرات جذرية شاملة.  
وينسى أن أوروبا - وألمانيا الغربية بالذات - لم تعد تخيفنا  
مهما رددت مستشارها الهر شميدت من تهديد.

بقي أمر مهم ينبغي الالتفات إليه وإدراك أبعاده تماماً.  
إن المستشار الألماني ليس سوى - صوت سيده - في هذا  
الأمر. وحق أنه مدفوع بجشعه الأوروبي المتأصل، لكن  
الحق كذلك أن الغرب كله - وأكرر: كله - يتآمر علينا  
الآن، وليس بعيداً أن ينفذ التهديد، وليس بعيداً محاولة  
احتلال آبار النفط العربية مباشرة أو عن طريق الكيان  
الصهيوني أو عميل مثل أنور السادات.

وقد يكون هذا التصريح، والحملة الإعلامية المركزة  
عن دور العرب في خلق أزمة الطاقة - وهي أزمة مفتعلة  
بكل تأكيد - تمهيداً لما قد يحدث.

انتباه!!

## فهرس

- 5 ..... حكاية قديمة جدّاً
- 9 ..... من افتتاحيات «الفصول الأربعة»
- 11 ..... ثورة الفكر... وفكرة الثورة
- 16 ..... عن «فى» و «عن»
- 19 ..... الأوّل آه!
- 24 ..... الكَمَدِيَا
- 28 ..... ألف. لام. ميم
- 31 ..... القتل بالكلام الفارغ!
- 35 ..... التكنو ترانسندانتيا ليزم
- 38 ..... متى غده؟
- 43 ..... مأساة التاريخ
- 47 ..... احلموا جيداً أيها الأطفال
- 53 ..... تأملوا خارطة الوطن

55	واقروا شيئاً من التاريخ
58	عن الأدب والثورة
65	الثورة الشاملة
69	علم تغيير المجتمع
73	الذهب الذى لا لون له
76	فن تحطيم الجماجم الكبيرة
82	الأحياء منهم والأموات
87	من «الأسبوع الثقافى»
89	لغة الزُّيُوَزيو!
93	الثورة الكبرى
100	العدد... والعُدَّة
108	فاصنع ما شئت
115	ما الذى حدث؟
123	لم لا تفهم ما يقال؟
127	لماذا «ابن مقلة»؟
131	المنسيون
140	والقياس مع الفارق!
143	العلم والعمل
146	تحريك الجلاميد!

153	إلى نيروبي .. والعودة
167	من «الأسبوع السياسي»
169	إفريقيا.. إلى أين؟
177	... والرأى العام العالمى؟!!
183	من.. يستخدم من؟
191	انتباه!

صادر من سلسلة  
«كتاب الشعب»

المؤلف/ المترجم	ر/م عنوان الكتاب
عياد موسى العوامي	1 أغاني العالم
عبد الحميد المجراب	2 يقظة الضمير
جمعة المهدي الفزاني	3 عرس الثورة
ترجمة: الدكتور عمر التومي الشيباني	4 فلسطين والكتاب المقدس
محمد حقيق	5 الأمثال الشعبية في ليبيا
كامل حسن المقهور	6 (14) قصة من مدينتي
محمد أحمد الزوي	7 هوامش على تذكرة سفر
أحمد إبراهيم الفقيه	8 معارك الغدر
المهدي أبو قرين	9 تاريخ المسرح في الجماهيرية
محمد علي الشويهدى	10 أحزان اليوم الواحد
الدكتور صالح أبو اصبع	11 قراءات في الأدب
محمد أحمد وريث	12 كليلة ودمنة ومقتل عبد الله بن المقفع

عذاب الركابي	تساؤلات على خارطة لا تسقط	13
عبد الله بلال	عليها الأمطار	
نجم الدين الكيب	قراءة في هذه التحولات	14
الدكتور على فهمى خشيم	قصة الرحالة واكتشاف ليبيا	15
مجموعة من المؤلفين	الأزاهير	16
سليمان سالم كشلاف	الديمقراطية الشعبية	17
تحسين عبد الحى	دراسات في القصة الليبية القصيرة	18
محمد بشير السوكنى	السلطة والثورة	19
عمر الحامدى	رسائل إلى أبناء الثورة	20
الدكتور محمد عمارة	في غمار الفاتح العظيم	21
الدكتور ميكى نزيوى	ثورة الزنج	22
ترجمة: شاكرا إبراهيم	نحن الشعب	23
خليفة حسين مصطفى	حكايات شارع الغربى	24
الدكتور صالح أبو أصبع	الحق والبندقية	25
نجم الدين غالب الكيب	قصة اكتشاف ليبيا في العصر	26
محمد الفيشورى	الحديث	
سالم والى	سلطة الشعب	27
فوزى الطاهر البشتى	حتى لا يظهر سادات جديد	28
	حلم الثورة في الشعر الليبي	29
	الحديث	



30	الاتجاهات الحديثة في مفهوم التربية	د. محمد التومي الشيباني
31	من وحى رمضان	عبد النبي الرباني
32	التحول الاقتصادي في الجماهيرية	محمد زيد
33	الفتاح ثورة الإنسان والحرية	جمعة المهدي الفزاني
34	الغد والغضب	خناتة بنونة
35	ذاكرة الكلمات	خليفة حسين مصطفى
36	خلجات إنسان	عيسى أيوب الباروني
37	كلمة في قضايا الوطن والأمة	سالم والي
38	الاقليمية وغطاءاتها	تحسين عبد الحمي
39	الإسلام ثورة مستمرة	عبد العزيز كحلوت
40	إيقاعات على الغربية	علي محمد عودة
41	الجماهيرية وانتصار عصر الجماهير	عبد الله بلال
42	ثورة صاحب العباءة	عبد الباسط القذافي
43	الصيام في القرآن	محمد السيد دسوقي
44	دور التربية في الوحدة العربية	د. عمر التومي الشيباني
45	المكتبة وجماهيرية الثقافة	مصطفى بديوي
46	الشعب المسلح	رياض سيف النصر
47	قراءات وتأملات في الثقافة الشعبية	عمر الموزغي
48	الانفصال الحضاري	جمعه المهدي الفزاني
49	الغربان وجوقة الجياح	البوصيري عبد الله
50	المسرح الذي نريده	محسن الخياط

على شعيب	أسرار القواعد البريطانية في ليبيا	51
فوزى الطاهر البشتى	رموز الهزيمة في الثقافة العربية	52
السنوسى شلوف	صور من جهاد الليبيين بفلسطين	53
محمد المصرى	الارهاب الامبريالى	54
الدكتور ممدوح يوسف	فصائل الدم بين الطب والقضاء	55
عبد اللطيف بوكر	عرب البرازيل	56
فارس قويدر	أواكس طروادة	57
	تطور التعليم العالى فى ظل	58
د. عمر التومى الشيبانى	الحضارة الإسلامية	
محمد فهمى زعتر	الكيمياء والدواء	59
الدكتور محمد التونجى	عبقريّة العرب فى لغتهم الجميلة	60
فوزى الطاهر البشتى	الفجر فى عيون الشهداء	61
عمر بلعيد المزوغى	عروس الريف	62
	أسس التنظيم السياسى فى	63
د. أحمد عبد الحميد الخالدى	النظرية العالمية الثالثة	
خليفة محمد التليسى	قصيدة البيت الواحد	64
محمد أحمد وريث	أثر بعد عين	65
د. ممدوح يوسف الجاسم	الخمر بين الطب والقضاء	66
الصادق النهوم	القرود	67
د. عمر التومى الشيبانى	دور التربية فى بناء الفرد والمجتمع	68
عبد الباسط عبد الصمد	ثورة الفلاحين	69



على مدى ثلاث سنوات ظلّ كاتب هذه المجموعة من المقالات يحرّر افتتاحية مجلة الكتاب والأدباء «الفصول الأربعة» ويسهم في صحيفة «الأسبوع السياسي» ويكتب تحت عنوان (مرّ السحاب) في «الأسبوع الثقافي» - وهو العنوان الذي تصدر به هذه المجموعة من بعض ما نشر بين عامي 1976 - 1979.

... مرّ السحابة لا ريث ولا عجل.

كان هذا منطلق الكاتب في مقالاته المركّزة عن الفكر - عامّه وخاصّه - وعن الثقافة والاجتماع والسياسة، يبدي آراءه في الأحداث التي يموج بها مجتمعه وتتفاعل في وطنه، ويتعامل معها بأسلوب المعالجة المختصرة، ويعرض أفكاره باللمحة الخاطفة.. ليقراها القارئ في الصحيفة السيّارة أولاً على عجل، راجياً أن يتأملها بعد ذلك على مهل؟

الشمّن

300 درهم داخل الجماهيرية



منشأة للنشر والتوزيع والإعلان